مكابدات الشفيع السنّاري

معاوية الشفيع

مجموعة قصصية

الفهرس

الاهداء

إلى روح (معاوية الشفيع)

الذي علّمنا أن الكتابة... رئة ثالثة للتنفس.

إلى أبنائه الذين كان لهم الصديق قبل الوالد.

إلى د. سلمى صالح رفيقة دربه و هي من كانت عصاه التي توكأ عليها و هشّ بها على آلامه.

إلى أسرة الراحل العظيم (علي الشفيع) من غادرنا منهم و من تشبث بالبقاء بيننا..

بعضاً من ريح يوسف.. "لولا أن تفندون".

إلى أحبابه في بقاع العالم المختلفة - وما أكثرهم- و هم يفتقدون قلمه الذي طالما عبّر عنهم.

إليهم جميعاً... نهدي هذه المجموعة؛

شمعةً تظل بلا إنطفاء ذكرى و ذاكرة لإضاءات الفقيد الراحل.

نلوم على تبلدها قلوبًا

تكابد في معيشتها جهادا

إذا ما النار لم تطعم ضرامًا

فأوشك أن تمر بها رمادا

المعرّي

عالم (الشفيع السناري)*

بين مطرقة الموت وسندان الفاقة

* كان معاوية الشفيع يكتب على منصة فيسبوك تحت اسم (الشفيع السناري)

عبد الله رزق أبو سيمازه

يحتشد عالم (الشفيع السناري) القصصي -بالغ القسوة- بأناس محبطين، يسحقهم القهر، والخيبات، وتلاحقهم مرير الذكريات، حيث لا خلاص، ولا مهرب لهم من الضياع إلا إليه.

تتوزع قصص المجموعة من حيث بنيانها الفني، ما بين الكلاسيكية، كما في (قصة هندية) و (كورونا وحر ...ولا كهرباء)، والتجريبية، كما في (فنتازيا الكلب).

الاخيرة، تعيد بناء قصة كلب عبد الجليل الشهيرة، التي درسها التلاميذ في المرحلة الابتدائية، ففي القصة القديمة، وعندما يعود عبدالجليل، ويرى الدماء تلطخ فم الكلب، يظن أنه أكل ابنه الذي تركه في حراسته، فيقتل الكلب، لكن بعد دخوله البيت يعثر على جثة الضبع التي مزقها الكلب الأمين، وهو يدافع عن الطفل. لكن القصة في بنيانها الجديد، تفترض تواطؤ الكلب مع الضبع، واشتراكهما في أكل طفل عبد الجليل.

لتنتهي القصة، إلى حزمة من الخلاصات، ذات المغزى للواقع المعيش، بعضها معلوم بالضرورة، وهي:

- إذا اختلف اللصان، ظهر المسروق.

- وإذا تصارعت الافيال، ماتت الحشائش.

وبعضها الآخر، مما استخلصه الكاتب من خبرة الحياة اليومية، وصكها على مثالها، ومن ذلك:

- إذا خرج العسكر من الثكنات، أفسدوا الحياة المدنية.

- إذا اتفق اللصوص والكلاب، تموت الحياة نفسها.

هذا التنوع، الذي ينزع نحو التحرر من التقليدية، يفسح المجال نحو التجريب، كما في قصة (طلحة السناري، والخواجات، والخمسة البلهاء) وهي نص هجائي، او كاريكاتيري، يحاكي جلسة تفاوض، أحد طرفيه طلحة السناري، والطرف الاخر، يرمز لهم بالخمسة البلهاء، بوساطة غربيين، لايقاف الحرب. وفيها يواجه طلحة الخمسة البلهاء، مطالبا إياهم بتسليم السلطة والعودة الى الثكنات، لأجل انهاء الحرب. لكن طلحة يُختطف، إثر خروجه من قاعة الاجتماع، ويختفي، الى أن تطفو جثته بعد أشهر فوق مياه النهر.

إذ يشمل التنوع موضوعات القصص، وثيماتها، من الحب الخائب والجنون إلى الراهن السياسي، بحروبه وأزماته.

فالمجموعة القصصية تغتني بتنوع وافر من الرمزية إلى الواقعية إلى الرومانسية... الخ

فالهم الوطني، الذي يشغل الكاتب، يلوّن الكثير من قصصه، ويتحكم لحد بعيد في تحديد مصائر شخوصها وابطالها

بما يشي بأن جزء من القصص - على الأقل- قد تمت كتابته، خلال فترة الثورة والحرب، وتأثر - تبعاً لذلك - بأجوائها، ومناخاتها.

تتقاسم الشخوص وأبطال المجموعة القصصية مصائر شتى:

- نازحون هاربون من الحرب،

- لاجئون تلاحقهم ذكريات الاعتقال والتعذيب،

- هاربون "الضياع إلى الضياع "، كمايقول بطل قصة " أهازيج "، أو من حب خائب، الى آخر مستحيل،

- قتلى، صرعى التكالب على الذهب. فمقتلة بئر الذهب، في قصة (دهّابة، أو ذكريات مزهلل) ما هي إلا دراما مقتضبة، تلخص ما يجري خارجها.

- انتحار الدقيل، محمد الطيب،

- جنون عبد الكافي وموته،

- اختطاف واغتيال طلحة السناري.

ومع ذلك

لا تخلو قصص المجموعة من التشويق، الذي يحتقبه السرد، وتكشف عن خبرة الكاتب التقنية، ويتعلق الامر، لا بالوقائع المثيرة وحسب، وانما باللغة الرشيقة والشاعرية، التي تتخللها مفردات من العامية، مستعارة من حقل الاستخدام اليومي، ومن قاموس الأغاني الذائعة، بجانب الايماءات للواقع والحاضر المأزوم، لأجل اضفاء قدر من الواقعية على النص.

في (المزهلل)، ثمة أكثر من راو، أحدهما، " التنقلو"، يروي حكاية الاخر،" الطيب ود قسيمة "، حكاية ثرائه المفاجيء، كما سمعها منه، وقد لايمكن تبرير هذا الازدواج فنياً، دون اعتبار للدور الذي يؤديه الراوي الاول في التعليق بمفردات الدهشة والتذمر مما يعيشه من فاقة وفقر، مقابل أسطورة الثراء التي تتفتح على مسامعه، مع وقائع الحكاية.

وهو ما يقوم به الراوي في قصة (عبدالكافي)، نزيل مستشفى للأمراض العصبية والنفسية، لكن بطل (كورونا وحر...ولا كهرباء)، هو الذي يقوم منفردا بعبء الرواية، لانها عبارة عن كابوس أو حلم رآه أثناء نومه.

لا تكتفي القصة، عند السناري بنقل الواقع كما هو، وانما تحاكيه ايضا، بأعمال الخيال والمهارات التكنيكية، اذ تشف المجموعة القصصية عن قدراته وخبرته في هذا المجال. مثلما تشف عن رؤيته لعالم تراجيدي يتخلق (بين مطرقة الموت وسندان الفاقة). وهي جملة وردت في قصة (قطر الدمازين. خط الروصيرص)، حيث يلتقي اثنان من الأحبة، بعد فراق ٣٥عاما، كنازح ونازحة.

قد يكون السناري متشائمًا، وهو يرى الثورة قد سرقت، ويري الحرب تقضي على الاخضر واليابس، ولم يعد ذلك الشفاتي، الذي تطلع لأن يكونه منذ عودته من الخليج ليواكب الثورة،

ويقترن بكنداكة بعد أن تراجع في حساباته (الهم الوطني) لصالح تقدم (الهم الخاص)، الزواج. كما في قصة (الشفاتي)، ربما لعامل السن.

معاوية الشفيع...

الكاتب الذي جعل الحياة مسرحًا كبيرًا

فخر الدين حسب الله

تعرفتُ على معاوية كـ"زول حكّاي" قبل أن أتعرف عليه ككاتب. كان معاوية يكتب كأنما يهمس في أذنك، بلا صخب ولا استعراض. لم تكن لديه تلك الرغبة التقليدية في طباعة مخطوطاته ونشرها في دور النشر؛ فقد كان زاهدًا في الأضواء، متصالحًا مع فكرة أن كلماته ستجد طريقها إلى الناس دون الحاجة لأغلفة فاخرة وأسماء دور نشر براقة.

رغم ذلك، نرى أن جمع وتوثيق التجارب القصصية والأفكار التي كان يطرحها الشفيع أمر مهم؛ وفاءً لحبّه للاطلاع وإيمانه بقيمة القلم والعقل. ففي كتاباته الكثير من الرسائل الأخلاقية والإنسانية المهمة التي تستحق النشر، ليطّلع عليها جمهور أوسع، مما يعزز الوعي بالقضايا الاجتماعية، الفكرية، والتاريخية.

لم تكن كتاباته مجرد نصوص عابرة؛ بل كانت خليطًا من الحكايات والتجارب، تتدفق كأنما هي حديث مسائي طويل بين أصدقاء.

كان معاوية يحول الحياة إلى مسرحٍ كبير، حيث تتماوج التعابير بين الجمال والسخرية، بين الأمل والخذلان. بمهارة مدهشة كان ينسج كلماته، فيجعل السوداوية المهيمنة على أقدار السودانيين تبدو وكأنها مجرد مشهد في قصةٍ أكبر، يمكن مواجهتها بضحكة ساخرة أو موقف حكيم.

كان رصينًا في أفكاره، عميقًا حين يحكي، ومبدعًا حين يكتب قصصه القصيرة. أتقن فن السرد ببراعة جعلتني ألقبه بكاتبي المفضل. كان لا يكتب فقط، بل يُغني كلماته بنكهة خاصة تجعلك تعيد قراءتها وكأنك تسمعها لأول مرة.

وعندما يعلق على منشورات الآخرين، كان صريحًا وواضحًا، لا يجمّل الحقيقة ولا يوارب في مواقفه. كان يعيش النصوص ويتقمصها، كأنه أحد شخصياتها، يقرأ بقلبه قبل عقله، ويتنفس الكلمات كأنها جزء من روحه.

أذكر مرةً قرأتُ له تعليقًا في نقاش محتدم، لم يلجأ فيه للجدل العقيم ولا للمزايدات الفكرية، بل ردّ بجملة بسيطة لكنها حملت في طياتها حكمةً توازي كتبًا كاملة. كان تعليقه أشبه بصفعةٍ ناعمة، تضحك حين تقرأها، ثم تجلس بعدها تتأمل كيف استطاع معاوية، في بضعة أسطر، أن يلخص واقعًا مريرًا لم تفلح الخطب الطويلة في شرحه.

معاوية لم يكن مجرد كاتب... كان صاحب مشروع فكري وإنساني ينساب في التفاصيل اليومية. كان يملك القدرة على تحويل أكثر اللحظات بساطةً إلى درسٍ عميق، وأكثر المواقف ألمًا إلى نكتةٍ تُخفف عنك وطأة الواقع.

برحيله، ترك فراغًا هائلًا بيننا، لكنه ترك أيضاً أثرًا لا يُمحى... كلمات كُتبت بمداد الصدق، وضحكات قُذفت في وجه الظلم، وتجربة إنسانية متفردة تظل مصدر إلهامٍ لكل من عرفه أو قرأ له.

نم قرير العين يا معاوية... فقد كنت كاتبنا الذي لم يحتاج للورق ليترك أثره في القلوب.

دهّابة

(أو ذكريات مزهلِل)

ذات ضائقة مواصلات خرطومية، قررت -انا العبد الفقير إلي ربه، وإلى المال- مُرتكب الحافلات والهايسات والكريزات، منذ زمن البصات -التي كانت لواري- والدفارات، قررت ألا أنتظر -وانا مش "لا أحب"، انا "أكره" الإنتظار، من زمن "قودو" - لا ارجو الفرج المواصلاتي وإنما "أدق" المسافة "كدرلِّي"، من ميدان جاكسون، وإلى منزلي المتواضع في الصحافة شرق. والحق أن مشوارًا كهذا، كان عندى "زي شراب الموية"، أيام كنت شابًا. أذكر أنني لم أكن أكترث كثيرًا لأزمات المواصلات، طالما أنني أمتلك مركبتي المتينة (خ.١١)، فكان من العادي عندي أن أمشي من ام درمان، البوستة، إلى أمبدة شمال، الحارة العاشرة على رجليَّ، أقسِّم المسافة-في عقلي- إلى قسمين، ليطمئن جسدي بأنه لن يرهق كثيرًا، اقول له-اي لجسدي- إنني، سأحمله-او هو سيحملني- إلى السوق الشعبي، حيث نجد مركبةً، فنركب، وعندما نصل إلى هناك، ولا نجد سوي صفوف المنتظرين، والمتسكعين والنشالين، نواصل الرحلة، بعد أن صارت قصيرة.

غير كراهية الإنتظار، حببت إلي "مشي الكداري"، حادثة نشلٍ، تعرضت لها في مدافرة الصعود إلى احد البصات، خسرت فيها ٤٠٠ جنيه سوداني، فأخذت أمشي موفراً "حق المواصلات"، لمدة عام ونيف، حتى استعيد هذه القروش التي فقدتها نتيجة غفلتي، وكسلي، ورغبتي في الراحة، فكان أن اصطدت ثلاثة عصافير-بحجرٍ واحد-: وفرت فلوسي، وعاقبت نفسي، وحسّنت من لياقتي البدنية، الأمر الذي مكنني-ذات مرة، كانت فيها أزمة المواصلات شاملة- أن أسير-وصديقي عبدالله أرباب- من خلف مستشفى احمد قاسم، في بحري، وإلي إستاد المريخ، في عرضة أمدرمان، بنفس واحد. one go.

عودٌ على بدءٍ، بعد أن غادرت ميدان جاكسون، وغذّيت السير في شارع الصحافة شرق، وأنا أسبِّح واستغفر الله، حينًا واغنِّي أحيانًا، محاولًا أن أقصر المسافة على نفسي، وأخفف عنها رهق الطريق، إذا بسيارة كانت مسرعة تتوقف، فجأة، ويخرج منها صوت، واضح المخارج:

- التِنقِلُّو.

كان هذا لقبي، تسمرت في مكاني، نظرت إلى السيارة، برادو 2023، رمادية اللون، ترخيص السودان (يعني ما خليجية، ولا "إفراج مؤقت")، فكرت سريعًا:(سيد العربية دي، غنيان شديد "مغندل"،... التنقلو،.. ده انا،.. ما ممكن يكون في اتنين "تنقلو"،.. بتشابهوا،.. في سودان المليون لقب، ...طيب الزول ده بعرفني، بلقبي، يعني زول قريييب مني، لكن انا ما عندي صاحب، او قريب ميسور الحال، بقدر ان يمتلك برادو، موديل السنة الجاية..) عاد الصوت من داخل العربة ينادي، اتجهت نحو العربة، وأنا اتوجس، من أن يكون راكب العربة، من أحد "الأجهزة" إياها، في وطن فيه، زي ٧٧ جهاز أمن ومباحث واستخبارات، شرطة وجيش وجنجويد، وحركات ومليشيات، ويبدو أن (سيد البرادو) كان يقرأ افكاري، فقهقه بصوت عالٍ:

- يازول ما تسرع، تعال اركب اوصلك، يا مقطَّع.. ده أنا.

ذكرتني نبرة الصوت- وإن إمتلأت بفعل النعمة والشبع- بشخص ما.. أسرعت على كل حال، وركبت في المقعد الامامي، ثم نظرت إلى السائق، الذي كانت الإبتسامة تضئ كامل وجهه عندما إحتضنني، داخل السيارة، كان يبدو سعيدًا، حقًا، برؤيتي، وهو يقول:

- التنقلو، والله ياكا زاااتك، بس شيَّبتَ.

بادلته الأحضان والنظر إلى الوجه، بل والإبتسام، لكنني - والحق يقال- لم اعرفه.

أدار محرك السيارة، وهو يقول -فيما يشبه الأسي-:

- ما عرفتني، مش؟؟

- بصراحة؟؟ مااعرفتك.

- إنت ساكن وين، حاوصلك، واشرب معاك شاي المغرب.

- والله تشرِّف والله.. انا ساكن الصحافة، بالشارع ده، خليك ماشي،

ومادام حتدخل معاي البيت، حاقول ليك الطريق، لحدي نصل.

- ظاابط يا مان.

ثم قهقه مرة اخرى، ضحكة "تريانة" من حلقٍ، غريق (بمعني عميق)..

وبينما قاد البرادو، ببراعة، -جعلتها كالمتهادية بين الحفر- عدت انا أنظر أمامي في الطريق، وأفكر فيمن يكون؟؟ نبرة الصوت دي، ماال غريبة علَيْ، البريق الفي العيون، يبدو -بل مؤكد - انه كان قريبًا مني، من جيلنا مافي ذلك شك، لكن الزول ده "مشلَّخ"، وجيلنا لما جاء إلى هذه الفانية، كان شعب السودان الفضل، قد ترك هذه العادة منذ عقود... كنت احسه ينظر إلي -بين الفينة والأخرى- ويبتسم، اخرجني صوته من افكاري:

- أها، طوالي؟؟

نظرت حوالي الطريق، ثم قلت:

- أول شمال.....

نزلنا من سيارته أمام بيتنا، وبينما كان -هو- يغلق ابوابها -بالريموت طبعًا- طرقت -انا- الباب، -قبل فتحه والدخول- منبهًا من بداخله بأن معي ضيفاً، ثم التفتُّ إليه رافعاً صوتي:

- اتفضل، شرفتنا والله، البيت بيتك.

كل ذاك وانا لم اعرفه بعد، رغم نحتي للذاكرة الذي سبب لي صداعًا، كان لا بد من تجاهله وانا أرحب بالضيف المجهول، لكنه كان كريمًا جدًا، معي، حين قال -وانا ادفع باب الصالون، لينفتح بالكامل-:

- ياخوي عشان ما ترهق روحك، انا الطيب حسن قاسم،

فغرت فاهي "على مصراعيه" مصابًا، بـ"هاء السكت"، نظرت إليه بعينين ضائعتين، فاردف:

- آأي الطيب ود قسيمة بت الماذون.

- لكين.....

- ما كنت "مشلخ"، مش؟؟ هو "الشلوخ" ده حق منو؟؟

قالها مقلدًا صوت ذلك "الدقلو" ثم قهقه للمرة الثالثة منذ التقيته اليوم...

تهاويت على أقرب كرسي، مشيرًا إليه أن يجلس على سرير الحديد، الذي كان يقف قريبا منه.....

داهشاً، صامتاً، اسلمت نفسي للأسئلة، كيف يتم تشليخ، أو يشلخ شخص نفسه بعد الثلاثين من العمر؟؟.. لكني لم اتوقف عند ذلك كثيرًا، فقد داهمني شريط الذكريات.. الطيب حسن قاسم، "ود الكلاكلة"، درسنا الثانوية، علي دُرجين، متجاورين في فصل واحد، كنا اصدقاء بمعني الكلمة، اذهب معه إلى الكلاكلة، في يوم الخميس، نتسامر طوال الليل، نشرب الشاي، ندخن، كان ذكيًا جدًا، ودودًا جدًا، وذو وفاء، وفي الخميس الذي يليه نفعل نفس الاشياء، لكن في بيتنا بالصحافة،.. فرقت بيننا الايام، والإنشغالات، بعد إمتحان الشهادة السودانية، وفشلي في الإلتحاق بالجامعة، دخلت "سوق الله أكبر" ودخل -هو- كلية الآداب، كانت اخباره تأتيني لماماً، من اصدقاء مشتركين، أو زملاء دراسة.... علمت انه كان يدرس الفلسفة، وقد نبغ فيها، احب زميلة له من اقاصي جنوب السودان، رفض اهله علاقتهما، وقالوا إنهم لن يسمحوا له بالزواج منها في المستقبل، ورغم أنه وعدها بتليين موقف اهله، أو "ركوب الراس" والصعب من أجلها، تركته مغاضبة، وتركت الجامعة، مغادرة إلى كينيا، حيث انضمت للحركة الشعبية، ثم (حدس، ما حدس)، وصارت مواطنة دولة اخرى، وحبيبة رجل آخر...سمعت اولًا، ان الطيب صار إلى مرض، ثم إلى ذهول، قالوا إنه طريح فراش في مستشفى "التجاني الماحي"، زرته هناك، لم يكن معه احد، تعرف إلي، واستعدنا بعض ذكريات، لاحظ طبيبه أنه يتحدث إلي بصورة شبه طبيعية، بل ويضحك في سرور. شجعني الطبيب على زيارته، قال ألا أحد يزوره، إلا احد اقربائه، في مثل سنه تقريبا، قال ان الزيارات تفيده، وجود اصدقاء/معارف قدماء، حوله، يشجعه على الحديث، "الفضفضة" تبادل التجارب، وربما يساعده على الشفاء، قال لي الطبيب حديثا كثيرا، حاول أن يشرح لي حالته بتبسيط، عابه استخدامه لمصطلحات "علم النفس" المعقدة، التي لم تسعفني ثقافتي المحدودة، في فهمها... تحدث عن "وسواس"، "إكتئاب"، "هلوسة" "فصام" "عقل واعي، وعقل لا واعي"، لكنه- علي كل حال- انتزع وعدا مني بمعاودة زيارة الطيب ،كلما سنحت الفرصة...عندما زرته، في المستشفى، بعد اسبوع، لم اجده، سألت طبيبه، قال إنه، بعد يومين من زيارتي له، جاء قريبه -الذي حدثني عنه- وقضيا كل وقت الزيارة، يتهامسان، ثم سال القريب، الطبيب، إن كانت حالة الطيب، تسمح ب"تخريجه"، وعندما قيل له، إنه يحتاج للعلاج لفترة اطول، قال لا باس ثم غادر، وفي اليوم التالي

كان الطيب قد اختفى.... رفعت راسي فوجدت أن الصالون والكون، قد اكتسيا بحمرة الشفق، وسمعت صوت الآذان، لابد إنه المغرب، كان هو ينظر إلي واضعًا، وجهه بين كفيه، ويبتسم، وعندما هممت بالحديث، قال:

- ياخ خليني اريِّحك، واحكي ليك كل الحكاية، وربما، ارتاح، انا. زاتي. جاهز؟

- أنتظر شوية اجيب الشاي العزمتك ليهو.

- قصدك، الأنا عزمت ليهو روحي.

- فليكن.

ناديت على ولدي، آمرًا بإحضار الشاي، شربه كلانا على عجل، اخرج الطيب، سيجارة، لاحظت أنها من ماركة البنسون، تذكرت اتفاق، "بنسون" و"هيدقز"، سألني إن كنت لا زلت مدخنًا، هززت راسي، أن لا. من "ولاعة" ذهبية-منسجمة مع لون علبة السجائر- أشعل سجارته، جذب منها نفسًا عميقًا، ثم قال:

- أبدا ليك من آخر مرة اتلاقينا.... شردت من "التجاني الماحي"، كنت حاسي بإني كويس، وقريبي، إسمو عوض، - الكلمك عنو الدكتور، ياخي- ، شجعني، وقال لي: يا زول ماعندك حاجة، "شاكوش"، وعدَّ.. ههههههه... طبعًا فكرت اطلع، واشيل معاي العلاج، لكن في المستشفى ما بخلوا جنبك دوا،... الممرض بديك جرعة واحدة... بيخافوا لو خلوا جنبك حبوب كتيرة، تبلعا كلها دفعة واحدة، تنتحر يعني... مااا مجنون. هههههه... وبرة ما بصرفوا ليك الأدوية إلا بي روشتة من طبيب نفسي... التقول مخدرات..... النتيجة كانت إني هربت.. وما استعملت العلاجات.... انتكست.... والله يا "التنقل"، مرقت من الشبكة عدييييل... الغريبة مرات برجع عادي، بدون علاج... ومرات ما بكون عارف الحاصل شنو، بكون متذكر يوم.. حدث معين... اتذكرو لي عوض... يقول لي ده كان قبل تلاتة شهور... طيب انا كنت وين؟؟ بسوى في شنو؟؟ يضحك ويقول لي: قاعد معاي هنا... هههههه، لكن ما تنزعج يا "تنقل" هسه انا كويس.. اتعالج برة.. وشفيت تماما.. غايتو إلا يكون الدكتور كضاب.. هههه.. نرجع للقصة.. ياخي عوض ده...... عوض.. استحملني كتير ياخي، زي الأم، إنت

فاهمني؟؟عمل لي المستحيل هو -طبعًا- قريبي، زي ما إنت عارف، ود خالتي، من بعيد، أمو وأمي- الله يرحمن-، بنات خالات..

فجأة صمت، طال صمته، فنظرت إليه، فإذا هو مطرق، يبكي، بللت دموعه القميص فوق الصدر، بكى طويلا حتى خلت انه لن يسكت لكنه، سكت، فجأة. -كما بكي فجأة.. أشعل سجارة أخرى.. رمى بعقبها، على بلاط الصالون،.. وداس عليه بجزمته، ال...معقول؟، "كلارك"...تصدقوا؟؟ استعاد هيئته السابقة بسرعة، ونظر إلي -بتركيز- في عيني مباشرة، ثم واصل:

- لعلك تتساءل، لماذا أحكي لك كل هذا؟؟ في الحقيقة، ما نسيتك ابدا، وما زلت-رغم تباعدنا الطويل-اعتبرك صديقي الأول... زي ايام الثانوي... واتمنى إنك تكون محتفظ لي، بنفس المكانة.

همهمت: اكيد يا الطيب... وكأنما اسعده قولي هذا، فابتسم بارتياح:

- عارف إنت وعوض، الناس الوحيدين، الزاروني في المستشفى؟ تاني لا قريب لا صديق لا جار، ولا حتى أخواني... ابدأ ما بنسي ليك الجميل ده... ده وفاء نادر في الزمن ده.

هنا قلت:

- ياخي ما تبالغ، دي حاجة عادية، الزول بزور زولو، وبقيف معاهو في السراء والضراء، والصحة والمرض، مش كنا بنقول كده، من نحن طلبة يا الطيب؟؟

- يازول، إنت ما شفت الأنا شفتو في الدنيا دي، ولا عرفت الناس زي ما انا عرفتهم... فعلا.. إنت نادر، المهم، حبيت أوضح ليك، ليه انا داير احكي ليك، حتى بدون ما تسألني..

- تمام يا حبيب، واصل..

- طبعًا هروبي من "التجاني الماحي"، كان بتدبير من عوض، في البداية قلت ليهو: قووول هربت، أمشي وين؟؟. قال لي: تمشي معاي.. انا مجهز كل حاجة.. يا زول انا ضمنت ليك مستقبلك..

هههههههه... طبعًا آثار حديثه فضولي من جانب، ومن جانب آخر، ما كنت داير ارجع بيتنا... فصادف حديثه هوىً في نفسي... عوض كان يحب

المغامرات، والاسفار، زول "مجازف" بمعنى الكلمة، ما بخاف خالص.... المهم قال لي: بعد تطلع من هنا، حنقعد في بيت في امدرمان، بعد سوق ليبيا... نقعد يومين تلاتة.. لحدي ما أدبر وسيلة سفرنا.... قلت ليهو: لي وين يا عوض الله، يا قرد الطلح؟ (كنا نتمازح كثيرا).. همس في أذني: الذهب الذهب.. يكاد عقلي يذهب........

- يازول قعدنا -في البيت داك- كم يوم، ما متذكر، لحدي يوم، عوض قام الصباح، قال لي الليلة بنمشي، قلت ليهو وين؟؟ قال لي الدهب.. طبعا لم أسأل في اي مكان؟؟ اي صحراء؟؟ ما كنت مركز الوكت داك، وبصراحة ما كان بهمني الدهب، ولا المكان، المهم ما ارجع البيت، ولا الحلة، قريتنا.. ما اطوِّل عليك الكلام، ركبنا من موقف شندي بتاع بحري داك، لمدينة ما، وهناك لقينا بكاسي، (بتشحن) الناس، للخلا.. لمواقع التنقيب الاهلي عن الذهب... الكومسنجية بكوركوا:

الداير الغنى

يركب هنا.

ههههههههه، الغريبة لما وصلنا هناك، لقينا نفس العربات دي بتشحن ناس راجعة للمدينة، والكومسنجية بنادوا عليها ب:

يللا اهلك

قبّال تهلك

ههههههههه، يا زول هناك- في نص الخلا داك- لقيت ليك بلد، سوق: دكاكين ومطاعم، وقهاوي، وجزارات... وبتاعين خدار... وستات شاي، وبيوت، مبنية بالمواد المحلية، رواكيب، قطاطي، بيوت جالوص، وكرانق... وجامع.. والاثاثات كراسي وطرابيز وبنابر .. عناقريب.. سراير حديد... وسراير خشب سنقل.. يازول قلت ليك بلد فيها خدمات متكاملة...

مناطق التعدين منتشرة حوالي هذه (المدينة)... غايتو انا وعوض سكنا في قطية نضيفة كده، وعوض كان مجهز كل شيء، المطعم البناكل فيهو.. - قبل ما نطبخ برانا-.. ست الشاي.. عندنا زير كبيير... متذكر دي الصورة الكونتها مع وصولنا هناك... بعد ده... البحكيهو ليك.. جزء من الذاكرة الغائمة في الوكت داك، وجزء قالوا لي عوض، لأنو -بصراحة- حالتي

ساءت، مع عدم العلاج... البتذكرو كويس.. إنو الناس رحبوا بي.. وكانوا بستمتعوا يتونسوا معاي... ممكن كنت بقول كلام.. خارم بارم... عشان كده ارتاحوا لي.. بكون قاعد في نصهم.. ويتكلموا عني... وأنا عارف، لكن (كأنهم يتحدثون عن شخص لا يهمني أمره).. كانوا مجمعين على إني ما عدائي.. ما مؤذي... بس بتكلم كتير، قالوا (بهترش ساي) ... بعض الناس بدوني قروش.. مية جنيه... ميتين.. وأصلًا انا ماكنت بصرف... ياهو السجاير... في البداية عوض كان بزعل.. ويقول لي ما تشيل قروش من زول... إنت ما شحاد.. أنا بجيب ليك السجائر.. لكن بمرور الزمن... - ورسوخ صورتي داخل ذلك المجتمع، بأنني (مزهلل)- تقبل الأمور الواقع... ومضت أيامي هادئة... كنت مرات بمشي مع عوض.. أو أصدقائه أو أي شخص، إلي (الآبار).. كلللهم عندهم أجهزة كشف المعادن، بحددوا بيها مكان ويدوروا حفِر. في ناس بلقوا دهب.. قريب من سطح الأرض... أو بعيد...كتير او شوية.

وفي ناس، حظهم كدقيق فوق نثروه... ما بلقوا، يقعدوا لامن يكملوا قروشم، ويتخارجوا... حامدين الله على نعمة العافية.

سارت الأمور هكذا... إلى أن كان يوم.. عوض وأصحابه كانوا يتحدثون عن الذهاب إلى مكان أبعد مما اعتادوا التنقيب فيه، جبل.. قالوا فيهو دهب كتير... كانوا يتهامسون... قالوا لا أحد يجب أن يعرف... ما فيكم زول يكلم زول... والخاين الله يخونو.. أحدهم نظر إلى عوض، ثم إلي.. فهم عوض.. فقال: ما جايب خبر، عايش في عالم تاني.. لكن نخليهو هنا... ما بتجيهو عوجة... لكن صديق له احتج قائلًا: وليه ما نسوقو؟، والله وناس.. كلامو لذيذ... بعدين قالوا نوع الناس ديل... فيهم بركة.. ممكن يجلب لينا الحظ السعيد. قريبك ده ممكن يكون "ولي"، يا عوض... ثم ضحكوا جميعًا...

استرسل الطيب حسن قاسم، الطيب ود قسيمة بت الماذون في حديثه -الذي يبدو أنه يحرره من شيءٍ ما، كان قد أثقل عليه- رغم إن الظلام كان قد اطبق على أركان الكون الأربعة.. قاطعته -بلطف-، وأنا أغريه بابتسامة متوددة:

- معليش يا الطيب، اول حاجة، إنت بايت معاي الليلة، زي زمان، تتذكر؟؟، دقيقة أكلم الولد يجيب لينا فول نتعشى بيهو.....

إلى هذه الدرجة بلغ فضولي.... لم يعترض-كما توقعت- أومأ موافقًا، إلى هذه الدرجة بلغت رغبته في الحكي، وسرد كل ما مر به اهوال، ومن ثم قصة الثروة التي جاءته تسعي. هكذا فسرت "لهفته" على الحديث.. غبت لدقيقتين، أنجزت فيهما ما وعدت، واحضرت له "عراقي، وسروال، وسفنجة".. وجدته يدخن، وكأنما تذكرت شيئًا، ذهبت إلى شباك الغرفة واحضرت منفضة سجائر عتيقة، وضعتها على منضدة صغيرة على يمينه، ثم جلست أمامه، وجهًا، قبالة وجه، وقلت:

- يللا، أحكي.

- يا زول، القصة دي طويلة.... والله يا "التنقل"، انا شفت العجب، في روحي دي، وفي الناس... ياخي اقول ليك شنو؟ غايتو ياداب فهمت فيها بعض الحكم والامثال والتعبيرات، البنقولا ونسمعا من "سنة آس"، عرفت معنى "المضطر يركب الصعب" وشفت فيها "الأصقاع النائية" ومريت بـ"الفيافي والوهاد"، هههههههههه و"الكثير، المثير، الخطِر"....... بخصوص الجبل القالوا لينا مليان دهب، حأحبطك واقول ليك ما لقينا حاجة، لكن -للمفارقة- ههhe، لقينا "مركوب"، هو بلا شك، لشخص ضاع، أو مات في هذه الصحراء اللعينة، أوشكت ان تدفنه، الرمال، قلت لهم-ونحن نقفل راجعين-: ديل "خفي حُنين"، وقهقهت عاليًا، لم يبدُ عليهم فهم شيء، فنظروا إلي شزرا، ثم تذكروا من اكون، "المزهلل"، فلم يوبخوني على ضحكي، وهم يبكون من دواخلهم..... عدنا لـ"معسكرنا"... لم يمض يومان، حتى جاء احد اصدقاء عوض، وأخبره بأنه-وشلته- ذاهبون للتنقيب في ذات الجبل، الذي عدنا منه، خاليي الوفاض، قال عوض: ها وين يا. مافيهو التكتح... رد الرجل: عارفك حتقول كده، وما حتمشي معانا، لكن انا ما جاييك عشان كده، بس دايرك تخلي الطيب ده، يمشي معانا عشان يونسنا، ويخفف علينا الزهج، عوض نظر إلي برجاء، فأجبته باختصار: بمشي.....

ركبت معهم في عربية "بوكس"، شبه جديدة، وأوغلنا في الصحراء لا نلوى على شيء.. كان الـ"بوكس"، دبل كابين، "مكندش"، كنا خمسة، السائق، وجلس على يمينه من يبدو اكبرهم سناً، وجلست انا وسط إثنين في المقعد الخلفي.... كانوا صامتين، لبرهة، بعدها -وكأنما على اتفاقٍ بينهم- بدأوا "يتجادعون" الدوبيت، استهله الشاب الذي يجلس على

يميني- ذاك الذي طلب من عوض، إن أذهب معهم، بالمناسبة إسمه "إلياس"-

ضاق بيّ الصبُر، لامِن قرشت اللوبة

كرهنِّي البلااد، لا عِن جبال النوووبة

جفلتُ حين رفع الذي على يساري، صوته، "خاطفًا" المقطع الثاني:

يا جِبنا مالًا، فرَّح أم زينوبة

يا مُتنا موتاً، لا كفن، لا طوووبة

امممممممم

هنا علا صوت السائق لأول مرة:

بعد "أم بوح" تقطِّط جامَّة اللّعداد

بِعتَ "اب نامة" بي قيمة عشرةَ امداد

كان جادت، بي خيت العنكبوت تنقاد

وإن عاقت، تقطِّع سلسل الحدااااد

امممممممم.....

الليل أليل، ولم يبد على صديقي الطيب، تعب ولا نعاس، وأنا أيضًا، كنت لا ازال ارغب، في معرفة القصة، حتى نهايتها، أو بالأحرى، حتى لقائي، هذا، بالطيب.. جاءني صوته:

- عملية البحث عن الذهب، -وتحويله، إلى كاش يقلل النقاش، أو ضحاكات- عملية طويلة ومملة، الحديث عنها يتطلب صبرًا، وليس عندي منه، شيء... بحث، تفنيش، لف حول الجبل، اطلع... انزل... أحفر، تراب... بوصلة... جهاز كشف المعادن، رنين.... صخور... كرتة... طاحونة... المسبك المحلي، والمسبك المركزي، ومسابك الشركات... وسيانيد وزيبق... وشغلانة... لا أدري لماذا لم يجر احد تحقيقًا صحفيًا عن كل ذلك... في ناس ماتوا... ناس انهارت بيها آبار واندفنوا تحت التراب... كنت أراقب... وألف... وأدور، حولهم، أساعد في الحفر حينًا... وأطوف حول الجبل أحيانًا... المهم أن المجموعة وجدت ذهباً، وبكمية كبيرة... تحدثوا...

عن قيمة ضخمة -بالجنيه السودانية- وعن بنك السودان... وأسماء دول عربية... دخلت خلفهم "البئر"، وجدتهم متحلقين حول صخور ذهبية، يكاد سنا برقها، يذهب بالأبصار، بعد مدة من الزمن قضوها في النقاش، ومشاريع المستقبل و "التضريبات"، قام إلياس، وقال: اوكي، حاجهز ليكم الفطور، انا بطني دي ما كويسة -زي ما عارفين-، لكن، انتو، تاكلوا في الهواء الطلق؟؟ ولّا هنا في البير؟؟ فضلوا أن يأكلوا في البير، أشار إليّ أن أتبعه، ذهبنا إلى العربة، (كان فيها "زوادة"، فقد كانوا يتوقعون "التخييم" لعدة ايام)، اخرج صحنًا وعلب تونة، ورغيف، عمل لي ساندويتش، قال لي امشي اكل، انت ما تاكل معاهم، ولما هممت بالإحتجاج، قال: حأعمل ليهم فيهو سم... ومنحني إبتسامة، -أذكر تمامًا، أنها- بلهاء... كان يطمئن إلي، كما تطمئن لـ"حيطة"، من ناحية اخرى، من سيصدق "المزهلل"، لو أني وشيت به؟؟؟

اكلت ثم تبعته، كان قد (فتفت) "التونة" في الصحن ونثر عليها مكعبات صغيرة من طماطم وبصل، وعصر فوقها ليمونتين، وحمل كيس الرغيف، دخلنا، البير كانوا قد فرشوا شوال سكر، -او شيئاً من هذا القبيل- على الأرض وتحلقوا حوله، وضع إلياس الصحن في وسطهم، وقال: حلبت ليكم فيها ليمون كتير، عشان لو التونة باظت يعمل ليها تعقيم، بالهنا....

بدأوا يأكلون بشهية مفتوحة، بل بنهم، خرجت انا من البئر، لا احفل بنداءات إلياس الذي أراد أن يستبقيني..... وقفت متكئاً على العربة...وسرحت في عوالمي... لا ادري، كم من الوقت غبت عنهم... كنت أتوقع أن يخرجوا في أي لحظة... لكن ذلك ما لم يحدث... عندما طال انتظاري... عدت إلى البئر... لست روائيًا... أو سينمائيًا... أو بتاع تشويق... باختصار وجدت إلياس غارقًا -حرفيًا- في بركة من دمائه، والآخرون، صرعى، موتى، وبالقرب من يد كل منهم، سكين طويييلة... بتاعة الجزارين ديك...

(إنك ميت، وإنهم ميّتون) ...

صمت الطبيب دهرًا... صمت حتى خلته لن يتكلم مرة اخرى... كنت أنظر إليه، لاتاكد أنه متيقظ... ثم ارتد بعيني إلى مروحة السقف الدائرة بهدوء وإصرار، كأنها تعرف هدفها... بعد وقتٍ، ظننته دهرًا... عاد صديقي للحديث:

ـ نظرت للجثث الأربعة الراقدة أمامي جاحظة اعينها إلى الأعلى... فوق... فوق... جثوت على جثة إلياس الغارقة في الدماء... لا أستطيع ان أصف شعوري في تلك اللحظات... أدرت عيني في أنحاء المكان... البئر... خطف بصري لمعان صخور كثيرة، مرصوصة بعناية... ده كلو دهب؟؟؟ صرخت وعاد إليَّ صدي صوتي، مضخَّماً... فجأة يا "التنقل"... أفقت من حالتي... استعدت شخصيتي... ادركت من انا وكيف جئت إلى هنا... وماذا حدث... وعمق ملهاة هذه المأساة (لو جاز التعبير) ... لم أعد ذلك "المزهلل"... عدت أنا، أنا، بتاريخي وذكرياتي... وما زلت لا اريد أن أعود إلى أهلي... تذكرت آخر لحظاتي مع "إلياس"، الآن أذكر تمامًا عندما تركني في السيارة، وذهب لإصدقائه حاملًا الطعام المسموم، أذكر أنه خطرت ببالي الآية التي قلتها آنفاً، (إنك ميت، وإنهم ميتون.) وهي التي دفعتني، لإنهاء انتظاري، والدخول إلى البير.... المهم صرت أدرك غرابة موقفي، انا وحيد بين أربعة موتى، تذكرت قول "جهيزة" ـالتي قطعت قول كل خطيبـ:(إن القاتل، قد ظفر به اهل القتيل، فقتلوه.) ... انا الآن، أرى أن القاتل، قد ظفر به القتلى، وقتلوه..... وكمية مهولة من الذهب، الثروة، المال، وسيارة شبه جديدة... كالمجنون... هههههه، اخذت انقل احجار الذهب إلي العربة، نقلتها كلها، ادرت السيارة وانطلقت إلى نقطة ارتكازنا الاولى... قدت السيارة قيادة خبير بالطريق.... لحسن الحظ... وجدت عوض وحده... تفاجأ عندما قلت له: أعطني أجمل وانضف، بنطلون وقميص عندك، وجيب ليك مقص، وموس حلاقة، احلق لي، (بحلق) فيني لمدة خمسة دقائق... فاغرًا فاه، دون أن ينبس ببنت شفة... حتى انتهرته: عوض اتحرك... انا الطيب... انا بقيت نصيح يا عوض... عانقني وبكى... ثم جرى ليحضر ما طلبته منه... بعد الحلاقة... استحميت... سقت عوض للعربية، قلت ليهو ما تسأل اي سؤال... انا لقيت الدهب ده... وانت عندك ربعو... كاد أن يسقط مغشيًا عليه لكنه تماسك... ثم ابتهج... لا شك أنه فهم ماحدث... فلم يحاول حتى، إن يسال... قلت ليهو... لما نرجع ما تفتح خشمك... مع زول... وما تظهِّر قروشك كلها مرة واحدة... قال لي: إطمئن، انا ما عوير... إنت حتعمل شنو؟؟ قلت ليهوـ مقلداً نبرتهـ: إطمئن، أنا ما عوير... وضحكنا......... أما كيف أسِلنا الذهب مالا... فقصة لن تفيدك في شيء... انساها...

سكت، أشعل سجارة... اخذ يدخنها في هدوء... قال:

ـ هذه قصة "النعمة"، التي هبطت علي من السماء، او من الارض-الأصح- ... هههه اما بخصوص الشلوخ- التي ادهشتك- فالموضوع بسيط.. قررت أن الطيب حسن قاسم، مات... نسيت اقول ليك.. قلت لعوض، لما ترجع... قول للناس إنك فقدتني في الصحراء، مرتين... مرة عندما انتكست وذهب عقلي... والثانية عندما اختفيت منك... وبعد فترة وجيزة... إنت سمعت عن جماعة... انهارت عليهم بئر... ولاقوا ربهم وهم يبحثون عن ذهبه... فرجحت أنني معهم، خاصة أن بعضهم كانوا يحبونني، ويوادّون...

نرجع للشلوخ.. قلت أعيش بشخصية جديدة.. ساعدني إني ما عندي اي ورقة رسمية إلا شهادة الميلاد- احرقتها- وبطاقة الجامعة... طبعًا.. كان يلزمني التنكر أولًا.. والشلوخ كانت وسيلة عبقرية لإتمام ذلك... وكلو لو عندك كاش... بتعمل... سافرت مصر... بدروب ليس فيها نقاط عبور... ولا جمارك، لا جوازات... ولا تفتيش... دون أن يعرف حتى اسمي، قام طبيب تجميل مصري بعمل هذه الشلوخ... بعد أن اريته صورة لشخصية سياسية قديمة، "مشلخ... زاعمًا له، أن هذه صورة المرحوم أبي، وأنا اريد ان أبدو مثله... حتى حبالي الصوتية لعبت فيها، مش لاحظت؟؟ عدت واستخرجت جواز سفر... وعملت استثمارات صغيرة تكفل لي العيش دون أن (آكُل من سنامي) ...

و بسس.

طبعًا، رجعت قريتنا، ظهرت فيها كأحد "الدهابة".. لم يتعرف عليَّ أحد اشتريت بيتًا.. مكثت فيه أيامًا، اذهب إلى المسجد بانتظام حتى صادقت- بشخصيتي الجديدة- من اعرفهم سلفا، بطبيعة الحال، ساعدت كل من يحتاج إلى مساعدة، في غذاء، أو كساء أو علاج،،

إمام الجامع، الذي أكرهه منذ قديم الزمان- كراهية الزين، لإمام ود حامد، في رواية "عرس الزين"- حرَّض اهل القرية ألا يتقبلوا مالًا مني، لأن مالي حرام، وعندما احتجوا بأن مال الدهب (خدمة يمين وعرق جبين)، قال إن مالي ليس مال دهابة، وإنما الراجح عنده، إنه من غسيل الأموال، هههه، لكن المنافق- مثله مثل أمثاله- لم يستنكف، إن يأتيني بليلٍ- وهو "يتلبّد"- طالبًا "سلفة"، عندما آلت حال زوجته الثالثة، إلى ولادة قيصرية، لا يملك تكاليفها في مستشفى فندقي، يظن أن منصبه، يؤهل زوجته للولادة فيه.

خلاصته، لم أستطع البقاء طويلا في القرية، جئت إلى هنا واشتريت بيتا، في واحدة من الشانتي تاونز حول العاصمة، لكنني جعلته فخيمًا، وحصينا، أعيش فيه بمفردي، لعلك تتساءل، إن كنت ساتزوج، هههههه، في بت، الزمن ده، بتعرس ليها واحد "مشلخ"؟ طبعا، في... وممكن ألقى واحدة عايزة تتزوج قروشي، لكن والله ما داير... اهلي في الكلاكلة، رسلت ليهم قروش كتيرة مع عوض، وقلت ليهو قول ليهم دي قروش دهب، لقيناها انا والطيب قبل ما يختفي، أو يتوفى...

كان الفجر قد انبلج، عندما انهي الطيب، قصته وقال إنه سيذهب لينام في فيلته الفخيمة، -او اي فندق، او شقة مفروشة في قلب العاصمة-،، لم ينس -قبل إنصرافه- أن يسألني ماذا وكم احتاج، فشكرته، ووعدته بالإتصال، حال احتجت إلى شيء، تبادلنا أرقام الموبايلات، احتضنني بقوة.. ثم ابعدني ونظر إليّ قائلًا: رايك شنو في حكايتى؟؟

قلت ليهو:

والله، زى ما إنت اتعلمت، إنو تعبيرات وحكم متداولة ما كنا بنحس بعمق، بمعانيها، انا من قصتك دي إتعلمت -بالضبط- يعني شنو، (الحقيقة، أغرب من الخيال) ...

--تمت--

جنوبية آه جنوبية

جلست بالقرب مني في الحافلة المتجهة نحو كبري الحلفايا (إنجاز الكيزان الوحيد)، كانت جميلة، مافي ذلك شك، سحنتها تقول أنها من قبائل جنوب السودان، طوييلة، أبنوسية اللون، ما بعرف كلام الشعراء، رغم ذلك، تذكرت أغنية "عماد أحمد الطيب" (جنوبية، آه جنوبية)، لا أحب عماد، - ولا حيدر بورتسودان-، يغنيان بشفتيهما، - لا بقلبيهما كسيد خليفة، مثلًا-، يغنيان كأنهما يقرآن في كتاب مطالعة... ما علينا، جلست بقربي، واستنشقت عطرها، حلو، خليط من رائحة المانقو والأناناس والباباي، أم تخيلت ذلك لأنها من "هناك"؟ نصفنا الذي بتره "الطفابيع".

المهم أنها جلست بجانبي، لدنة كانت، محننة، عجبت أن كيف لحناء أسود، أن يكون جميلًا جدًا، في بشرة سوداء. نظرت إلي، فأمعنت النظر فيها، يا إلهي، إنها صغيرة، بل يافعة (ما بتصل عشرين سنة، كان نططت)، هكذا قلت لنفسي.

-سلام عليكم

-عليكم السلام يابتي.

نظرت إلي بتركيز

-إنتي قلتي شنو يا أمو(عمو)؟؟

-قلت ليك، بتي.

إبتسمت عن أسنان، نضيدة، بيضاء من غير سوء، آية أخري.

- أنا بتك؟؟ آنا جنوبية.

-طيب مالو؟؟ كان ممكن يكون عندي عيال جنوبيين، لو ما....

سكت

- لو ما الكيزان، وجون قرنق مات.

أكملت هي.

-صاح والله يا بتي.

إبتسمت، وبظرف ولطف شديدين، قالت:

- هوي يا مندكرو، يا جلابي، إنتو ما بعرسونا.

ضحكت، قهقهت، وقلت:

-طبعًا إنتي عارفة كلامك ده، ما صاح، مندوكرو كتيرين متزوجين جنوبيات.

أطرقت، ولأول مرة ألاحظ أن بطنها متضخمة نوعًا ما، حامل.

-كلامك صاح يا عمو، صاحباتي اتنين معرسات مندوكرو، وعايشات صاح، في "واو"، حياتن ما لخبطت كتير، لما جنوب انفصل، و"سيلفا"، طلع ماسورة.

أحسست بالحزن العميق في نبرة صوتها، ولم أجد ما أعزيها به، ظننت أنها-أيضاً-تزوجت من "مندوكرو"، وهي حامل بطفله، غير أنها استرسلت في الكلام:

- أنا عرست نوباوي.

ثم فجأة لاحظت أنني أرتدي كمامة، فقالت:

- إنت دكتور؟؟

-لا.

-طيب ليه لابس كمامة؟؟ عشان شين؟؟

ضحكت، فضحكت مرتين، مرة لظرفها، والثانية لأني-حقًا-"شين".

قلت لها من - بين الضحكات-، عائدًا لموضوعها، الذي استهواني:

- اتزوجتي، نوباوي؟؟...

- أيوة، بس هسه شرد، أنا جيت من جنوب نفتشو.

تضاعف فضولي، وسرني أنها وثقت بي، وشاركنني دواخلها، فقلت:

-أسمعي يا بت أخوي، أنا نازل محطة الكبري، إنتي نازلة وين؟؟

- أنا بنزل" طرمبتين"، لاكين ليه؟؟

-عشان نفتش الزول الشرد، خلاص ننزل في "الكيلو"، وانا عازمك قهوة عند "ست شاي" جنوبية.

-إنت مندوكرو هقار(حقار)، أنا بعزمك مع ست شاي، حبشية.

-أوكي.

تحدثت مع "ست الشاي" الإثيوبية، بلغة لم أفهمها، رغم أني - بحكم تطوافي في البلد والعالم-أفهم لغات - ولا أقول كلمة"رطانات" الإستعلائية- أهلي الدناقلة، ولغة القمز، في البلو نايل، ولغة الزغاوة، ولغة "النيمانق" في جبال النوبة، بالإضافة للغة الأدروبات، والتقرينجة،

قلت لها: ده كلام منو؟؟ قالت: ما عليك، ده كلام قهوتك، حنشرب أربعة فناجين زي الحبش، وضحكت. كنت أعلم عن طقس القهوة الإثيوبي هذا، فقلت - بجزع-:

- تمانية فناجين ما بتدفعيها براك.

قالت بغضب حقيقي-هذه المرة-:

-إنت مندوكرو، هقار. أنا بدفع.

ثم انفرجت أساريرها فجأة، وصاحت:

- علي الطلاق.

(تذكرت،"والله العظيم"، حين قالها قرنق. في خطاب مشهور.)

جيء بقهوة لذيذة، ورغم خلوها من السكر فقد احتوت على زنجبيل وهبهان، وأشياء أخري، لم أدر كنهها، لكنها أضافت مذاقًا، فلكلوريًا، مازال ملتصقًا بلهاتي.

-مااا أظنو شرد، ما في زول بشرد منك يا..

واستدركت: -

- إنتي اسمك منو؟؟

-مريم، وانت؟!

-الصافي.

-والله انت-بالجد- صافي.

شكرتها علي حسن ظنها بي، فقالت انها ارتاحت لي من اول نظرة، لأن بي ملامح من "كوجي"، زوجها. رأتني أنظر إليها بترقب وتركيز.

زفرت من أعماق صدرها، وبعد هنيهة-ظننتها دهرًا-، نطقت:

- هو - في الحقيقة- ما شرد، أنا بقول شرد، عشان أكرهو، وما أكوسو، لكن زي ما شايف، أنا هسه بفتش ليهو، وكنت عايزة أسألك منو، عشان بشبهك، إنت بتعرف زول إسمو" كوجي كربوس"؟؟

لم تكن تنتظر إجابتي، لكنني أومأت بالنفي على أي حال، فواصلت:

-الحياة، بقت صعبة في جنوب، حرب، غلاء أسعار، مافي شغل، وكوجي بقي يزعل عشان ما بقدر يجيب لي قروش، قلت ليهو: أنا عندي أهلي عندهم زراعة وبهايم، بجيب أكلنا، وبجيب ليك قروش تشتري مريسة وعرقي زاتو، لكن ما كان راضي، أظنو زيكم- يا مندوكرو- بفتكر ما صاح يشيل قروش من مرتو(زوجته).

صمتت وابتسمت لتخفف من حدة الإحتقار التي بدت في صوتها تجاه "المندوكرو"، لكنني لم أكن متأثرًا بذلك.

واصلت:

-يوم مشيت أجيب لبن و"بفرا"، من بيت أمي.

وصلت البيت لقيتو مافي... لقيت ورقة وقلم في الطربيزة، لكن ما كتب حاجة.

انسكبت دموعها دون صوت، لم أدر ماذا أفعل، لمت نفسي ولعنت فضولي... أخيرًا سحبت منديلي وأعطيته إياها، ثم" دعكت" على كتفها الإيسر... مسحت دموعها، وإفراز أنفها، ثم تنهدت:

-مسكين ما قدر يستحمل العطالة.

ثم أردفت:

-هو هنكوش، ناعم.. ابوه مات وهو بحارب مع قرنق، تبع "يوسف كوة"، انت ما تعرف "يوسف كوة".

قلت ـ من بين أفكاري-:

-بعرف "يوسف كوة"، وبعرف "دانيال كودي أنجلو"، واصلي.

وجمت لبرهة، تأملتني فيها:

-مندوكرو، إنت، ما جلابي.

قلت بحدة:

ـ أنا ما مندوكرو زاتو، واصلي.

ـ المهم، لما جنوب انفصل، ما قلت ليك، نحن، ـ كوجي وأنا-كنا عايشين في هاج يوسف، المايقوما، كوجي قال ما بعرف اهلو وين، بعد ابوه مات-استشهد، زي ما انتو بتقولوا- اخواتو عرسوا وسافروا، استراليا!؟؟ مانشستر؟! ما عارف.. أمو كتلوها الجنجويد، قريب ده، دخلوا حلة، كتلوا العجايز والشفع، قالوا عشان هم ساعدو "عزيز الهلو".. المهم، كوجي كان شغال في منظمة، كنا مبسوطين والله، بس مرة بوليس قبض كوجي، كان شارب مريسة، جلدوهو قدام الناس، عشرة يوم ما مشي شغل... كوجي قال نمشي نعيش في جنوب. جنوب فيهو حكومة كويس، حركة شعبية بتاع أبوه.

سكتت في صمت مبين، جاءتني رغبة في ان أختم حديثها بالقول:(وحدس ما حدس)، لكني صمت، إحترامًا لصمتها.

قلت:

-حأفتش كوجي معاك، مؤكد.. لكن منو القال ليك، هو جاء العاصمة؟؟

-مافي زول قال، بس ده المحل البعرف افتشو.

هو ـ بعد زهج من العطالة- مرات كان بقول، يمشي كاودا، مرات يقول يمشي اوروبا بالسمبك، لما ثورة قامت في خرطوم، قال خلاص نرجع هاج يوسف، لكن ثورة ما غير هاجة، مش يا مندوكرو؟؟

أومأت ايجابًا

-هو هنكوش، ما بمشي كاودا، عشان كده ممكن يكون هنا.

فجأة ضج المكان، وأخذ شاربي الشاي والقهوة، العطالى، والمتسكعين، يتصايحون، بينما شرعت ستات الشاي في الجري، وهن يحملن ما استطعن حمله من معدات.. إلتفت لأرى ما الذي يحدث، فرأيت "دفارًا" للشرطة يقترب بسرعة مجنونة لا تناسب ضيق وزحمة الشارع، وثمة اطفال يصرخون: الكشااااااة.

وفي خضم هذه الفوضى، ضاعت مني مريم "الثالثة"....

--تمت—

قصة والله

رنَّ هاتفي بعنف، أو هكذا خُيِّل إلَي، إذ أنَّ الليل كان قد أوغل، والهدوء هو السيِّد، وكل صوتٍ، عنيف، في تلك البلاد البعيدة، حيث أقيم، مهاجراً، منفياً، طريداً، لا يهتم بي أحد. جاءني صوتٌ باكٍ... صوتُ إمرأة، قالت:

- الدِّقيل مات، يا عوض

- م...........

- الدقيل مااات، انتحر.

أغلقت السماعة تلقائياً، شعرت بثقل في قلبي، و(تنميل) في أطرافي، وضيق في انفاسي، بالإضافة لصداع عنيف، جرَّاء ما شربته، قبل أن أنام، - او لكي انام-، بعد ستة أيامٍ، من السهاد المتواصل. تذكرت **Insomnia,** آل باكشينو، هذا السهاد، كان لابد أن ينتهي بكارثة.

ضغطت بيدَيَّ الإثنتين، علي جبهتي، وكأنّي، أعصرها، -لكي تنزِّ ألماً-، عسي ان يخف الصداع، ولكن هيهات، جريت إلي المطبخ، فتحت كابينة، أخرجت منها البنادول، بلعت حبتين مع ماء كثير، رغم الظرف، والحزن والسُّكْر، والفجيعة، تذكرت قريبي الذي كان يحدد جرعة علاجه -حسب شدة أعراضه- بنفسه، مثلاً لو كان عنده صداع خفيف، يأخذ حبة بنادول واحدة، ولو كان صداعه شديداً، فإنه يتناول ثلاثة أو أربعة حبات بنادول، (رغم أنف الأطباء)، لو كنت مثله، لابتلعت تسعة حبات في تلك اللحظة.

عدت إلى سريري، هذه المرة، ضغطت على عينَيَّ، أرجوهما أن تسِحَّان دمعا، جالت بخاطري، أبيات شعرٍ، لا أعلم قائلها:

يا ولدي لا تبكِ، فأحزان الصِّغَرِ

تمرُّ سريعاً، كالحلمِ، مع الفجرِ

وغداً تكبر - يا ولدي-،

وتُريدُ الدمعَ، فلا يجري.

لم يجرِ دمعي.. "الدقيل"، هذا لقبه، إسمه كان محمد الطيب ابراهيم، صديق صبا وشباب، درسنا المدرسة المتوسطة، في مدينة الرصيرص، "الباسلة"، (أبي يقول عنها ذلك)، والثانوي، كان في الدمازين-وبين الرصيرص والدمازين، كبري، كما أن (بين الديوم والعمارات، شارع زلط)، زي ما قال شاعرنا العظيم، اسماعيل ود حد الزين-، لم تكن هنالك مدرسة ثانوية، -في الأراضي السودانية-، بعدها، وإلى الحبشة. كان محمد الطيب، صاحب أعلي مجموع دخل الدمازين الثانوية، منذ أسسها النميري، في 1978، وإلى يوم الناس هذا. كان (فتيً غريراً، أرعنا)، المهم أننا تصادقنا، بصدق، انا كنت إبن "جلَّابي"، سافر من شمال السودان الأقصي، إلى تلك "الأصقاع النائية"، عشت معهم وبينهم، أحببتهم، وأظن أنهم أحبوني، لعبت معهم كرة القدم، فأبدعت وأمتعت، ويا لأيام، "قلب الأسد"، الفريق الرهيب، سيد كرة القدم هناك، بلا منازع. اولاد الجلابة، -أمثالي-، كانوا يلعبون في نادي "الهلال"، لكنني إنحزت لأهل البلد، وكنت" أسداوي".

مرَّت-أو كرَّت-، أو دارت دورة الأيام (كما غنت البلابل)، إمتحنّا، الشهادة السودانية، محمد الطيب، - طبعاً، لأنه أذكي مني-، تبوَّأ مقعده في جامعة الخرطوم، وخانني، ذكائي المحدود، وإمكاناتي المتواضعة، فدخلت جامعة ما، في بلدٍ أوروبي ما، بمساعدة "فلوس أبي"، المهم ان الود بيننا لم ينقطع...

عدت من غربتي، وجدته موظفًا، ليس كبيرًا، لكنه مهم، في إحدى الوزارات، ساعدني على إيجاد عمل، ثم جاء "الطفابيع"، وما أدراك ما هم؟؟ أنتم تعرفونهم، فلا داعي لأسترسل.

الصداع راح، الحمد لله، انبلج الفجر، وقفت (على حيلي)، الدقيل مات، انتحر، تلك كانت زوجته، من اتصلت بي، صفا عقلي - دون جوانحي- بكيت... وبعد غياب عشرين عاماً، عن طقوس الإسلام، أنزلتُ، فروة صلاة، كان أخي قد أرسلها لي، من السودان، قائلاً: دي فروة خروف الضحية، عملا ليك، عمنا علي حامد، وقال يرسلوها ليك، قال ليك: يا ولدي، كان سِكِرتَ، ولَّا نمت مع الخواجيات، عليك الله ما تخلي صلاتك، إنتَ فيك خير يا ولدي. أحببت الفروة، وعلقتها في الصالون، الآن صلَّيت عليها، وقرأتُ القرءان، قرأت-عن ظهر غيب-: (القارعة ما القارعة؟)، وقرأت:(فبأيِّ آلاء

ربكما تكذبان؟)، وقرأت:(فإنّما هي زجرة واحدة*فإذا هم بالساهرة.) وقرأت:(ومن لم يجعل الله له نوراً، فما له من نور)..

(أصبح الصبح)، الشمس الشحيحة، في هذه البلاد، طلعت، في هذا اليوم، عدت إلى الموبايل، اتصلت بها، زوجته، "الشتيلة"، كانت لا تزال تبكي، قلت: أحسن الله عزاكم، له جنات الخلد، و(يا أيتها النفس المطمئنة......)، قالت ـ من بين دموعها ـ: وهل كانت نفسه مطمئنة؟؟؟

صرخت فيها ـ وقد توترت، و(لكن، خلِّ عينيك تدمعا) ـ:

ـ أسكتي..

وأغلقت الهاتف مرة أخري.

تذكرت أن روبن وليامز، الممثل الكوميدي الأمريكي، الذي قضي عمره، يُضحِك العالم، قد قضي منتحراً، فما بال صديقي "الدقيل"، محمد الطيب إبراهيم؟؟

إتصلت بالشركة الكندية للإنشاء والتعمير، ـحيث أعملـ، قلت لهم، إنني، ربما مصاب بكورونا، ولن اتمكن من الحضور للعمل، ما لم أوصل هذا الأمر نهايته.. الخواجات، أبرياء، طيبون، صدقوني، قالوا:

You take, whatever it takes.

أخذت أتجول في أنحاء المنزل، أضغط جبهتي، ثم عينٌيّ، أسألهما، بل أستجديهما، أن تبكيا، دمعاً، ـاو حتى دماًـ، فترفضان، تستعصمان.

فتحت اللاب توب، ذهبت إلى الماسنجر، وجدت رسالة منه، من الدقيل، دقَّ قلبي بعنف، ثم اكتشفت-ويا لخيبة رجائي ـ أن الرسالة كانت، من قبل شهرين، كتب لي، قال:

ـ صاحبي الحلو، الجميل، "ود الجلابة"، الطيب، انت كيفك؟؟

تعلم انك الأثير عندي، عشان كده، بقدر أفضفض معاك، انت صاحب حقيقي صدقني. الجمع بينا ما كان شوية، "الشتيلة" بتتذكرك دايماً، وكلما تلقاني ما كويس، مهزوم نفسياً، تقول لي، أضرب ليك، إنتَ وبس، وأناـكالعادةـ أزوغ وأماطل، وأقول ليها: أنا كويس، وانتي كنز. هي كنز-كما تعلمـ، المرأة التي تقبلتني كما أنا، مهزوم، فاشل، مضطهد، فقير، ما عندي حاجة.

المهم، أنا أتواصل معك الآن، لأنها المرة الأخيرة، إذ أنني مغادر، إلي حيث لا عودة، لن يفهمني أحد، إن لم تفهمني أنت يا "ود الجلابة". 

لا بد انك تذكر، انهم اعتقلونا معاً، قالوا-كما تعلم-إننا ننتمي لحزب (الريف والمدن)، -ولم يكن هناك تنظيم بهذا الإسم، لكنها "بارانويا" العقائديين، المعروفة-، عذبونا معاً، لكنهم عذبوني كما لم يعذبوك، ليس لك ذنب في ذلك، وكيف يكون عليك ذنب وأنت ممن تعرضوا للتعذيب المبرح؟؟ انت نبيل وجميل، لكنهم-هم- من يستطيعون أن يكونوا، أكثر قبحاً، تجاه من هم أمثالي، رغم أنهم، قبيحون-أيضاً- تجاه أمثالك.

لم أنس ابداً انهم عذبوني، لم يتحلوا بأخلاق الفرسان، لم ينازلوني، رجلاً لرجل-إذن لصرعتهم واحداً، إثر آخر-، لكنهم جاءوني زرافاتٍ لا وحدانا. ضربوني ضرب غرائب الأبل، (كما تقولون، يا عيال عرب😂🤣) أطفأوا سجائرهم النتنة، علي رأسي، وبطني، وصدري، أذابوا أكياس البلاستيك- بالنار- على ظهري، قيدوني، ثم اغتصبوني، لم أنسَ ذلك، ولن أنسى، وإن حاولت التناسي، كسروا كبريائي، وحطموا نفسياتي، فانهارت معنوياتي، وإيماني بالوطن، الواحد..

خرجت من السجن، لأبحث عن وطن بديل، هاجرت، تزَوجت "الشتيلة" الجميلة، الرائعة، التي تعرف.

انت - أيضاً- فعلت نفس الشئ، يا "ود الجلابة"، هاجرت وتزوجت إمرأة عظيمة، تحملت نزواتك وتمردك، أحبت شخصيتك الخليط، من "زوربا" و"سعيد مهران"، و"مصطفي سعيد".. *

أنت رُزقت، بـ"ياسر"، و"حميد"، وأنا لم أُرزق بأحد، ليس لأنه (يجعل من يشاء عقيماً)، ولكن لأنهم، أزالوا رجولتي، ليس فحولتي، لكن مقدرتي علي الإنجاب.

ثم على غير توقع منا أجمعين، قامت الثورة، ردت إلينا الروح إلى حين، قلنا أننا سنظفر بثأرنا ممن ظلمنا، ثم اتضح أن من سرقوا ثورتنا، ليسوا بأفضل كثيرًا ممن ثرنا ضدهم.

أعرف أنك لن تستسلم، وأنت كـ(أبو نقدح) بتعرف وين تعضي أخوك. أما أنا فطريقي واضحة، قزازة فودكا، اسميرنوف، فخيمة، وشريط كامل من الـValium 10.

دمت مناضلًا يا صديقي، وآمل-من كل قلبي- أن (تعبروا، وتنتصروا) ....

واااي أنا، لماذا لم أفتح ماسنجر قبل موته؟؟ إذن لربما استطعت فعل شيء، ولما فقد العالم، الدقيل الإنسان. عمومًا، فخارطة طريقه تصلح لي كذلك.

--تمت--

---

*- زوربا هو شخصية الكاتب اليوناني كانتزاكي، الرجل المتمرد، الذي يحب الحياة، بلا قيود دينية ولكن بأخلاق عالية،وإحساس - بالآخرين-عظيم.

و"سعيد مهران" هو لص نجيب محفوظ النبيل-في روايته "اللص والكلاب"-، مناضل إشتراكي رغم لصوصيته..

و"مصطفي سعيد" هو بطل الطيب صالح، الرجل الذي تعرفون.

ثم ضاعت وإنطوت

لمحتها، هنااالك، في مطار اتاتورك، الضاج بالحركة والأصوات، والأضواء، تجاهلتها، يا لي من كذوب، هي تجاهلتني،.. وظلت -طوال فترة مراقبتي لها، والتي جاوزت ال٤٧ ثانية- تنظر من خلال زجاج يطل على المدرجات، تصفعه حبيبات المطر الخفيف، الذي يلطف إسطنبول في هذا الوقت من كل عام، لكنه -اي المطر- يجعل الرؤية غائمة، والرؤيا -إن كان ثمة رؤيا هناك- نائمة أو هائمة.. رؤياها، أم رؤياي؟؟

لا أحب المطارات، منذ أن غني، مصطفى: (مطارات الوداع ضجت، قدامك، وراك).. لماذا الوداع دائمًا؟ ... مافي مطارات قدوم واستقبال وترحاب، في الغنا، يا مصطفي؟، لم أحب مطارًا في حياتي. وهل هنالك من يفعل؟؟ ... أكره "هيثرو" -المطار الذي ينام باكرًا- ليس فيه اي مسحة جمالية، هو مطار يؤدي وظيفته فحسب، ويعكس عدم ترحيب البلد، بك... ما علينا..... أفلتت مني آهة، ردتني إلى أرض الواقع، نظرت حيث كانت تنظر، بقايا طائرة، مهيضة الجناح، ركلها الزمن-أو أجيال من جنسها، جديدة، وجميلة- فانزوت بعيدًا... ثم نظرت إلي حيث كانت "هي"، وجدتها قد اختفت، تملكني ارتياح، إذ انزاح عن كاهلي عبء الذكريات ...أعاني كثيرًا من ذاكرتي، ليس من عطب فيها، ولكن - ولعلكم تعجبون-، من حدتها..."ذاكرة فيل"، يقول صديقي.. لا أدري لماذا لم يسمِّ الفنان الفريد- النور الجيلاني- أغنيته اللطيفة، "خواطر فيل"، بـ"ذاكرة فيل"؟؟، حتى هذه لها في ذاكرتي مكان.. كنا في سجن "كوبر" عندما يأتينا معتقل جديد، نحاول أن نتعرف به، و "ننطقَّس الشمار"، ونرى ماهي "الغلطة" التي رمت به في هذا الجب.. المعتقل الجديد عادة ما يكون متحفظًا، يشك في ضلُّو.. (نجح الطفابيع في غرس اللا ثقة بين الناس، كانوا يقولون، أنه - حتي بين المعتقلين-، يوجد "غواصات")، المهم، كنا عندما نسأل تعيس الحظ الجديد ، ذاك، يقول: أنا زاتي ما عارف جابوني هنا ليه.. فننطلق في غناء مفاجئ، عاصف، ضاحك: جابوني ليه ليه؟، عايزني، اعمل إيه هنا؟؟

ليس في ذاكرتي مساحة رمادية، تتذكر "نص، نص"، لكن فيها جحر- كثقب أوزون-لكنه "صغيروني"، لرمي الطوب..... السعيد الذي "ارمي

طوبته"، تختفي معه ذكرياتنا المشتركة، إلى الأبد كأن لم تكن، ولو سألتني عنه-بعد ذلك- يمكن أن أقول لك-صادقًا-: مين زكي جمعة؟؟

كانت في انتظاري، في مطار "واو"، عندما حطت طائرة "يونيسيف" الصغيرة، في المدرج غير المسفلت، بل مفروش بتراب أحمر كالذي يحبه، قصب السكر، -إن افترضنا أن للقصب مشاعر-، الهواء الذي أثارته "الطويئرة"، أثناء هبوطها، بعثر خصلات شعر مستقبلتي، تذكرت "محمد كرم الله":

النسيم غازل ضفايرك، بعثرا، وغيَّر نظاما

ثغرك الدر المكمل، منو حيَّتنا ابتساما

(واو)، و(wow)، أهذه من تلك؟؟ أم تلك من هذه؟؟

مدينة جميلة ساحرة، طبيعة عجيبة، كنت أنظر من نافذة العربة، بينما انا جالس مع السائق، جلست هي في المقعد الخلفي-عكس أعراف المنظمات، التي تقول بأن الضيف، يجب ألا يكون بجوار السائق، وليس كنُظم العسكر-لعنهم الله- التي تقول بأن الرتبة الأعلى تجلس في الأمام، وإلى الخارج، لا لتقود، ولكن لتتلقي التحية العسكرية، عجبي-.

المهم أننا مضينا كما وصفت... رأيت كنيسة جميلة.. رأيت مسجدًا، حديث الإنشاء.... مركز صحي قديم، (من زمن الإنقليز).. وسينما، كل هذه في إنسجام، أو قل عدم تناقض، مع الاشجار، الحشائش، الجو الغائم، والمبشر -لماذا يقولون المنذر؟ - بالمطر... فجأة صرخت-انا- في السائق أن يقف، وأشرت إلى ثمار بيضاوية صفراء ملقاة على جانبي الطريق... توقف الرجل، بهدوء، وأنا أسأله:

-دي منقة؟؟

من خلفي، جاءني صوتها، مرحاً، تزينه بحة محببة:

-آأي يا منقة، دي منقة.. هنا، الشفع بلعبوا بيها زي كورة "الشُّرَّاب"...

ثم واصلت لعب دور الدليل، في مكان كان -بالنسبة إلي- من المجاهل... أنصتُّ، دون تعليقات أو أسئلة، كتلميذ نجيب، أكان ذاك عشقاً للصوت، أم حبَّاً في المعرفة؟؟

عمل المنظمة كان محفوظًا لي، روتينيا، مملاً، بعده كنا نتغدى سويًّاً، ثم نتسامر على أنغام القهوة... اختلفنا واتفقنا، تحاورنا... تشاجرنا.. ضحكنا، وعبسنا.. ولم يغب شيءٌ عن حواراتنا، السياسة والدين، الحب، والثورة.. الفن وهوليوود، كرة القدم والتنس، إيلون ماسك، وثورة التكنولوجيا، -التي رغم أنها كسرت احتكار السلطة للمعلومة وجعلتها مبذولة للكثيرين-، لكنها تحولت، -بقدرة قادر- إلى أداة خطيرة، في يد الإعلام يسوقنا -عن طريقها- بالخلا.. نظَّرنا... حتى قراهام هانكوك، و "سادة الفقر"، وتلك الكاتبة، التي قالت، بأن الإحسان(charity)، يعطِّل الثورة، لم يفلتا من تشريحنا... وحين نصمت، - لإرتشاف القهوة-، كنت اسرح، واتذكر:

كانت تدعوني بالرجل الرملي

واناديها بالسيدة الخضراء.

وتلاقينا في زمني الشفقي

وتنادينا في مرح طفلي

وتعارفنا في استحياء

وتحسس كل منا -مبهورا-

ألوان الآخر، وتبادلنا الأسماء*

لا أبالغ، إن قلت أننا لم نحتج لأكثر من أيام ثلاث، لنشكل زوجاً مثالياً منسجماً، في تناغم فكري، وجسدي ندر وجوده بين إثنين، -كما قدرنا-، جُبنا المدينة، طولا وعرضا، وطفنا اريافها القريبة، تعرفنا إلي الناس، وبمرور الوقت صاروا ينظرون إلينا، كزوجين، ربما هم يفعلون ذلك مع كل موظفين ياتونهم كثنائي، إمرأة ورجل، لكنهم كانوا يتعاملون معنا، كزوجين متفاهمين، متحابين، سألتها إن هي لاحظت ذلك، فقالت-وابتسامة غامضة، تحوم حول شفتيها، ولا تحط عليهما:

- in a way, may be they are right.

دامت بيننا هذه الحال، لشهرين، مرا سريعًا، كالحلم مع الفجر..

ذات ليلة حالكة الظلام، ماطرة، ذات رطوبة لزجة.. وكان كل منا ينام في المكان المخصص له، من سكن المنظمة، هي في جناح الإناث، وأنا مع الرجال، -بطبيعة الحال- ... (لم يطل ليلي، لكن لم أنم)* بعد.... سمعنا أصوات رصاص... لم انزعج كثيرًا، فقد كنت أعلم أن الحركة المتمردة، ومليشيا تناصر الحكومة، تصفيان حساباتهما -احيانا- ليلًا.... في أطراف المدينة ..... أرخيت أذنَيَّ وأرهفت السمع.. أثناء ذلك سمعت أصواتاً قريبة جدا، كان الظلام دامساً، أزحت (شيش) النافذة ونظرت، كان هنالك من يحمل مصباحاً كهربائيًا، ورأيت حارس مبنى المنظمة وهو يرتدي حلته، بيضاء القميص، زرقاء البنطال، كان حامل المصباح يتحدث معه همسًا، سمعته في سكون الليل، ذكر الأول إسمي، وسمعته يقول: لا داعي لتشغيل الجنريتر، وإضاءة المكان... إرتعت... ارتعبت.. (الله، ديل كلاب الأمن، الليلة اتذكروني من وين؟؟)

قفزت من النافذة، وجريت بين الاشجار، آخر ما سمعت كان صراخها... تناديني.. تناديني... بإسمي نادتني، والبحة في صوتها مختلطة بالخوف.. لكني لم أتوقف، بل أسرعت الخطى..."حسبتها في رأسي"، سيعتقلونها، ومن تبقى معها من موظفين، سيرسلونهم إلى الخرطوم، سيطردون المنظمة، والحجة جاهزة، التعاون مع المتمردين.... واصلت السير حتى آلمتني قدماي، وأذناي -من صدي صوتها/ندائها الذي ما يزال-إلى لحظة الكتابة هذه- يرن فيهما، وآلمني قلبي، بطبيعة الحال، (وأيضا كذلك) ضميري...

جريت وجريت، طعنتني أشواك، قرصتني حشرات، ارهبتني اشباح، وطيوف، مزقت حذائي، -وأسفل بنطالي-، جذوع شجيرات مدببة، لكني لم اتوقف... رغم صوتها... لم اتوقف... لم أكن أدر إلى أين أتجه.. نظرت إلى السماء، علّي أجد النجم الذي يهدي إلى الجنوب- لا الشمال- لم يهوِ بعد.. لكنا كنا -كما اسلفت- في ليلةٍ، كفَر النجوم، غمامها، بتعبير إبن ربيعة العامري... حلمت ان أجد معسكراً للمتمردين، قريب، كنا نقصدهم فيه، فيقتادوننا إلى بعض قراهم، لنقوم بتطعيم الأطفال..... الآن .... عجزت عن الجري، فسرت بطيئاً، مثقلاً -حرفياً- بجراح صغيرة، لكنها دامية... عجزت عن السير، فجلست لا أدري على ماذا.. غالباً أوراق أشجار جافة بللها الندى، أو المطر، أو -ربما- (مخرجات) بعض الحيوانات....

تذكرت -فجأة-، أنني احمل هاتفي النقال، أضأته، يا الله، انا تحت شجرة منقة، داهمني الجوع لحظة رأيت ثمارها المنطرحة على الأرض... تذكرتها.. وتذكرت كلامها ذاك.. لكن "عصافير بطني غرّدن"، فالتهمت-دون غُسل- لا أدري كم "منقاية". ليتضافر الشبع مع التعب، فينتجا نعاسًا، لا تمكن مقاومته.........

صحوت، وشيء يحجب عني "رقراق" ضوء الشمس الذي تسرب من بين أغصان الشجر.

فتحت عيني، فرأيته، مارد اسود يرتدي ملابس عسكرية، نظرت إليه برعب وانا احاول الجلوس، لكنه إبتسم عن أسنان نضيدة ناصعة البياض، وقال:

-إنت ما تخاف.

-إنت منو؟؟

-أنا؟؟ نحن متمردين.

وضحك، لكنني، تنهدت في ارتياح.

-ياخي انا بفتش ليكم،

معسكركم قريب؟؟

-خمسة دقايق من هنا.

-ممكن تسوقني هناك؟؟

-إنت منو؟؟ استخبارات جيش؟؟

-لا ياخي، انا بتاع منظمة....

-عارف.. شفتك في "واو"،

يللا...

في نيروبي، عرفت ان ما خمنته قد حدث، طردت منظمتنا في البلد، وعادت (هي) إلى المقر في اسكندنافيا، اعرف رقم المقر، قالوا إنهم قلقوا علي كثيرا، حتى أعلن المتمردون إني تحت حمايتهم... لم أكن أعلم ذلك... سألتهم عنها، اعطوني رقمها.... فورا، اتصلت بها:

-ألوووو.

-حمدا لله على سلامتك.

-اشكرك، كيفك إنتي؟؟

-كويسة....

-مشتاقين.

-باللهي؟؟

هالني برودها، وخمول صوتها.

-مالِك؟؟ في شنو؟؟

-مافي حاجة، معليش، انا مشغولة... باي.

تيت... تيت.. تيت.... انقطع الاتصال.

سارعت إلى الاتصال بصديق مشترك.... حاول التسويف والمماطلة، قلت:

-... حصل ليها شنو؟؟

-من ياتو ناحية؟؟

-من ناحيتي.

-كدي، هسه حمدالله على السلامة، لحدي ما نتلاقى.

-ياخي ألحقوني بمكتب نيروبي، وبرمجوا سفري، بعد تلاتة اسابيع، ما بقدر انتظر، عشان اعرف..

-يازول، اقول ليك، -بس ما تدبرس- قالت علاقتكم انتهت..

-فهمت كده، من برودها خلال الاتصال. لكن ليه؟؟

-قالت إنت اتخليت عنها.

-إتخليت عنها كيف؟؟

-إنت ما اتخليت عنها يعني؟،

مش خطبت واحدة قريبتك؟،

-ما حصل... والله ما حصل...

-كان كده اسالا هي.

تيت.... تيت... تيت، انقطع الإتصال...

لن أصف لكم كيف صار حالي بعد مكالمة الصديق، لأنني أنا، نفسي، لم أكن أعلم حالي، المهم أنني سارعت وعاودت الاتصال بها، في المرة الخامسة ردت عليَّ، بنفس ذلك الصوت البغيض، ابغضه كلما تذكرته، حتى الآن...

-نعم.

-صحي كلام (....) ده؟؟

-قال ليك شنو؟؟

-إنتي منو القال ليك، انا خطبت؟؟

-مافي زول قال لي.. ويا استاذ، ما تتعب نفسك، انا نهيت العلاقة دي، لأنك هربت، خليتني للأمنجية وهربت.

-دقيقة اشرح ليك.

-خليني أكمل.. ناديتك.. كوركت ليك، صرخت بإسمك....

صمتت، ثم جاءني صوت نحيبها.. موجعا.. كان... مزق نياط قلبي.....

-يا بت الناس اسمعيني، انا هربت لأني مطلوب لأنو.. الأمنجية... ولأن المنظمة بتحميك.. و....

و.....

انتبهت لـ تيت تيت تيت، إذن فهي لم تسمع شيئا، من تبريراتي، وحكايتي....

وما زلت ابرر واحكي لنفسي، وللمصطفين من اصدقائي، ندمائي، واختم دائما ب:

وتفرقنا

.....

لكني أذكر أنَّا -ذات مساء-،

كنا قد خادعنا منجل حصاد الموت

غافلنا صيحة ديك الوقت

وطبعنا فوق جدار الليل

تخطيطًا يشبه ظلينا،

لونين مزيجين

مسكوبين، على طرف وسادٍ، متجعِّد

منهارين على مسند مقعد...

ها أنت تراني أتملَّي هذي اللوحة

في أيامي الجرداء...

ربما ذاك، بعض ما رأيت، في مطار كمال اتاتورك، بإسطنبول، وخلتها كانت هناك... ذهبت إلى زاوية في المطار، وصحت في النادل:

أفرغ للوحة كأسًا، أرجوك.

هذا إجمال القصة. *

--تمت--

* الأبيات للشاعر المصري العظيم: صلاح عبد الصبور.

عبدالكافي

في مروري المسائي، دخلت عليه، في عنبر الأمراض العصبية والنفسية، كان هو "تبع" الأخيرة، كان مريضي المفضل، إن جاز التعبير. يذكرني بـ(عنبر رقم ستة، لعبقري القصة القصيرة، الروسي: أنطون تشيخوف).

دخلت غرفته، وجلست بجواره في السرير، دون أن أحييه، عامداً، قال -بلا مبالاة-، ودون أن يكلف نفسه القيام من رقدته، حيث كان "متمدد علي ضهرو، وخالف كراعو"، وينظر إلي مروحة السقف، قال:

-إنت منو؟؟

-ملك الموت...

-جيت تقبض روحي.

-اي نعم.

-كم مرة ياخي، الإسبوع الفات ده، ما قبضتها؟؟

وضعت يدي اليمنى فوق فمي، وكتمت صوتي، كي لا يسمع ضحكتي أو يراها..

-ايوة قبضتها لكن ما الاسبوع الفات، الكلام ده كان قبل سنة.

-قبل سنة، دي كانت المرة الاولى، والاسبوع الفات كانت السابعة، إنت ما بتفتر من قبض الارواح؟؟

هذه المرة لم أستطع منع نفسي من القهقهة، لكني فوجئت، بأنها لم تزعجه، ولم تعكر مزاجه الهادئ.

-ياخي انت مقرف، تكتل الناس وتضحك؟؟

-ياخي أنا ما ملك الموت ولا حاجة، انا دكتورك.

-دكتور شنو انت؟؟ انا ما عندي دكتور، ما محتاج دكتور. انا كويس.

-بس انا دكتورك وانت بتعرفني، وكنا بنتونس طوالي.

تجهم وجهه، وارتفع -قليلًا- صوته:

-ليس ما قبل الحرب، كما بعدها... انسي التكتيكات القديمة. ههههههه.

-يعني شنو؟؟

-يعني ما تعمل لي فيها دكتور، تخفي مهنتك عني، إنت ملك الموت.

لعنت نفسي، إذ ورطتها في هذا المأزق.

-طيب يا حبيب، هسه انت وين، في الدنيا؟؟

-إنت ما بتفهم؟؟ يعني انت حتجي تقبض روح زول، في الجنة؟؟ ولَّا في المقابر؟؟، مثلًا.

كاد يقنعني، بأنني-فعلاً- غبي.. كان ذكيًا جدا، كما ذكر ذووه، وكما لاحظت، انا في اللحظات، أو الدقائق، أو الساعات، أو حتي الايام التي يفيق فيها، مستجيباً للعلاج.

وحتى عندما يهيم في دنياه، أو دنياواته، الخيالية، كانت لا تخلو تهيؤاته، من مخيل ذكاء، شيء محسوس، كلمع البرق، أو رائحة الخُمرة، لا ادري كيف اصفها لكم، كان في عينيه خيوط تشع، حين يركز النظر عليك، فتحس-بلا منطق- إن هذا الرجل، ربما كان عبقريًا، ولو تماديت في الحديث معك، ربما اخترق دماغك، وقرأ أفكارك.

كنت دائما ما العب معه اللعبة اعلاه:(انا منو؟) لكي أتعرف على حالته الذهنية (ما يسميه ناس سلطان وود إسحق، والأبوابي احمد: الـ mental state examination).

مرة، وجدته-خلافاً لمظهره المعتاد- حليق الذقن، نظيفًا، معطراً، ويرتدي جلابية "بيضا مكوية"-، فخمنت أن علاجاتنا له قد أثمرت، والرجل، الآن في حالة إستعادة للواقع (recovery)، طوالي، "دخلت فيهو شمال"، سألته:

-انا منو يا عبدالكافي؟؟

نظر إلي باسما، لعدة دقائق، استبشرت فيها خيراً، لكنه احبطني، حين قال:

-ما عرفتك.

-كدى خمن، اتذكر، فكر، أكون منو؟؟

أعاد نظرته نفسها، وإبتسامته تلك، ثم:

-تكون الترابي؟؟هههههاها.

لم اتمالك نفسي من الضحك معه، وتركته إلى مكتبي، حيث جلست أفكر في حالته، وهل، له، ثمة شفاء منها.

كان عبد الكافي ناشطاً سياسيًا، تعرض للإعتقال، والشيخ في قمة السلطة، عرابها، وآمرها وناهيها، تم تعذيب عبد الكافي بأحدث ما انتجته الموساد والسافاك، والحرس الثوري الإيراني، من وسائل، بالنار والكهرباء، واكياس البلاستيك المذابة باللهب، رأي صاحبَي سجن يموتان، بين ايدي الزبانية، ورأي أخرين ينزفون، ويبكون، ويستعطفون، ثم يستسلموا لمشيئة الجلاد، غير أنه، ما لان ولا انكسر، لكن عقله ذهب، أطلقوا سراحه، بعد إطمئنانهم، بأنه عاد لا يفقه من بعد علم شيئا.

توصلت لخلاصة أنه ليس بالدواء وحده يعالج الإنسان، عهدت بـ(مريضي المفضل) لزميل، وأخذت إجازتي السنوية، تواصلت فيها مع زملاء آخرين، ومعالجين نفسيين، ناس أسامة مرزوق، ومبارك مامان، ومع منظمات تهتم بـ(ضحايا التعذيب)، في أمريكا الوسطي والجنوبية، ومعاهد اصدرت كتبا ودراسات عن (التعذيب وآثاره النفسية)، وقرات كتاباً طلبته، من جنوب إفريقيا إسمه (الناجون من الأقبية)..

عندما عدت من الإجازة وجدت عبد الكافي ما زال ضيفاً على مستشفانا، أبلغني الزميل الذي قام بمتابعته، بانه كما هو، يصحو قليلًا، ثم ينقلب على عقبيه، فيهيم، كثيرًا.

أول ما فعلته، هو إيقاف جلسات العلاج بالصدمة الكهربائية، عن عبد الكافي، وقررت الدعوة لـ(كونصلتو) طبي، - يتكون من كل الإستشاريين، وكبيرة المعالجين النفسيين، وكبير الممرضين، بالقسم الذي اعمل به، واساتذة علم نفس، وعلاج الامراض النفسية، بجامعة الجزيرة-، لمناقشة حالته، واقتراح معالجة جديدة توصلت إليها عبر قراءاتي واتصالاتي ودراساتي، أثناء فترة الإجازة.

لا أطيل عليكم، المهم ان التوجه الجديد في معالجة عبد الكافي، قد أتي أكله سريعًا، واستطعنا (تخريجه) بحفل ضم كل الاستاف، تمنينا له، عودا حميدا،

للحياة، ولإسرته في اقاصي غرب السودان، وحملناه الهدايا، لزوجته، وإبنته، ماريل، التي رزق بها، وهو رهن الإعتقال، ونفحه مدير المستشفى، بمنحة مالية سخية -تبرع بها الميسورون من الأطباء، وذوي المرضي- قائلا:

-ده رأسمال، ابدأ بيهو مشروع مبتكر، بعد فصلوك من وظيفتك، البتحبها.

ذات صباح- بعد ستة أشهر-، حضرت مبكرا إلى مكتبي، فوجدت فيه، عبد الكافي- بهيئته الرثة، التي رأيته بها مريضاً من قبل- فتوجست خيفة، لكنه وقف على طوله، وعانقني بالسلام، اجلسته، وطلبت له قهوة، وعلبة سجائر، فقال إنه لا يدخن، ولما رأي إندهاشي، قال -ضاحكًا-:

-يا دكتور، داك كان تدخين جن ساي.

بعد أن شرب القهوة، لم ينتظر حتى أسأله عما ورائه، إذ حكى:

-يا دكتور إطمئن، انا كويس خالص، صحتي "بومب"، حتقول الجابني شنو؟؟، بصراحة جايي اشتغل هنا، غفير، مراسلة، اي شغلانة.

-واسرتك، في الغرب؟؟

قال بحزن وانكسار:

-لم تعد لي اسرة.

-كيف، ليه، ماتوا؟؟؟

-طلقتني، قالت مجنون، ما انتظرت العلاج، وعرسوها الاسبوع الفات.... عايزك تعرف يا دكتور انا ما زعلان منها، والله هي معذورة. الله يجازي اللي كان السبب.

-وبنتك؟؟

-معاها طبعا، حسب سنها، الحضانة عند أمها، ما علينا يا دكتور، تلقي لي شغل؟؟

إستأذنني لينادي على قريب له، كان ينتظر خارجاً، ولم اره عند دخولي، قال إنه أصر أن يأتي معه، لأنه ظن، أن عبد الكافي، بعد ما فاق، رجع لو

جنو، على حد تعبيره، المقتبس من أغنية، وذلك لأنه -عبد الكافي- عندما سمع بطلاقه، قال لهذا القريب:

-ملك الموت، بكوس الناس، وأنا ماشي ليهو-في الخرطوم- براي.

ضحكنا، ثلاثتنا، وطمأنت الرجل، ونصحته أن يعود إلى أهله وعمله، و (كافي حيشتغل هنا، وما بتجيهو عوجة)..

ادخلناه معهد التمريض، وتخرج فيه بإمتياز، طلبنا أن يعمل معنا، وبحكم انه كان من نزلاء العنبر، كان يعرف الكثير من مهارات التمريض، وساعد كل الأستاف بتعليمه ما ينقصه منها..فكان رائعًا، مع المرضي وذويهم والزملاء والزميلات...

بعد ذلك هربت من البلد "مختلجًا"، وبعد حفل الوداع الذي أقامه لي القسم، وكان عبد الكافي خطيبه المفوه، قلت له وأنا اودعه:

-اشوف ليك معاي عقد عمل في مستشفى النفسية بتاع (الطائف)؟؟ قالوا بدوا مرتبات كويسة.

-يا دكتور اغتراب شنو بعد العمر ده؟ لكن مسخت علي المستشفى دي، والخرطوم كلها، انا برجع اشتغل قريب لي بتي في الفاشر..

الاسبوع الفائت، تلقيت مكالمة من صديق مشترك هناك، أبلغني بأن دانة سقطت على عبد الكافي وزميله، في العمل في إحدى مستشفيات الفاشر، وقد توفيا في الحال.

بكيت كما لم ابك من قبل، ومن بين دموعي رأيت -على كنبة كان يجلس عليها إبني الكبير، ليقرأ - رأيت كتاب، جورج امادو: (كان كان العوام، الذي مات مرتين)، غمغمت لنفسي: لكن كافي، العظيم، مات ثلاثاً.

--تمت--

عمّو الشفّاتي

(قصة ماا طويلة خالس)

عرفته، في غرف الدراسة بالجامعة، التي لم نلبث بها طويلاً حتى أمسك بتلابيب السلطة في البلاد، "همج رمت بها الصحاري جنة المأوى"، وتعرفون بقية القصة.

تحول صاحبي لشخصية أخرى، معارضاً-للسلطة الجديدة- لا تلين له قناة، سياسياً، جسوراً، وعدواً-للدكتاتورية-هصور. عرفته المنابر، المظاهرات وبيوت الاشباح والسجون، حتى كرهه "الأمنجية"، واعتبروه أحد أسباب "الهدر المالي"، في الجهاز، بما يأكل من فول رديء وموية بالزيت والصلصة في المعتقلات، فعملوا على مضايقته حد "التطفيش".

اغترب صاحبي "مختلجاً"، حاملاً أسمالاً بالية وبعض كتب في "هاند باق"، و "شايلاً" وجعه، في "بقجة".

استقر به المقام في ("مواني المدن النفطية"، وشق ايش ما تقبّل، يا أبو الحيل، في قلوبنا مواجعك، متكيّة.) كما كان يطيب له ان يردد بشجنٍ ظاهر.

اندغم في حياة الغربة وجرت الدنانير، أو الريالات أو الدراهم-لا فرق- بين يديه، ولكنها-والحق يقال- لم تنسه الهم الوطني، ولا ألهته عن الاستماع لـ(يا الخرطوم يا العندى جمالك، جنة رضوااان، طول عمرى.......إلخ)، في الغدو -الى العمل-، والرواح -الى البيت-.

مرّت، كرّت، أو فرّت-لا فرق-الأيام والسنون، وبدأ يلح عليه همٌّ جديد، سرعان ما أطاح بالهم الوطني وقهقره الى الدرجة الثانية، شاقاً طريقه-تماماً كفريق الرابطة/كوستي- إلى الدرجة الاولى الممتازة، ذلكم هو الهم الخاص جداً، الزواج.

حلم-منذ مطلع شبابه-بالحب الكبير، الذي يتحدى الصعاب و "يصحّى الكهارب في الشوارع، كاسراً سور الموانع"، ثم الزواج السعيد وبيت الهناء، لكنه -ككثير من أحلام الصبا والشباب العزيزة-دُفن تحت ركامٍ من الثلج.

داوم على "النزول"، للسودان، عاماً إثر عام، وإجازة تلو أخرى، متأبطاً همّه/حلمه، طائفاً به المدن، والقرى والدساكر، باحثاً عن حبيبة/زوجة، "حِنَينة وسُكّرة"، "ضرب اليها أكباد الإبل، وكاد يقتله في طِلابها الشوق"، لكن مساعيه خابت ولَم يجد من توافق "مواصفاته ومقاييسه"، واضطر للاستعانة بأصدقاء وأقارب وأخوات وخالات، يزودهم ب"التعليمات"، لينتشروا في جهات البلد الأربع باحثين عن "البت/الحديقة"، والتي هي لا "صفراء فاقع لونها"، ولا زرقا، ذات "خدرة دقاقة"، لكنها-حتماً- تسرُّ الناظرين، (أريدها بتفهم، تناقشني الند للند، تفتكر وتعتقد، وتقول؛ أنا من رأيي....)، كان يقول بحماس. ورغم ان بعض "مراسيل الشوق"، كانوا ينظرون إليه كنصف مخبول، إلا أنهم-وبدافع حبهم له-، لم يتوانوا، أو يتراخوا في محاولة انجاز المهمة الجسيمة التي ألقاها على كاهلهم الذي لم ترفع الحكومة عنه المعاناة كما وعدت طوال عقود.

"ودارت دورة الايام"، و "لا جديداً، جدَّ، ولا قديماً، زال"، لم يجد صاحبي، الغول، فتاته، والخل الوفي، لم يجد له "العنقاء"،

لكنه -وبعناد الأكراد والبغال- لم يتزحزح عن مواصفاته قيد أنملة، ولَم "يقدم أي تنازلات"، تفضي الى "تسوية أو حل وسط"

رغم تندر أصدقائه وتخويفهم له من تقدم العمر، كعامل "يضعف موقفه التفاوضي"، رفض -بشدة- مقترح البعض بأن يترك الأمر لأسرته، تختار له،" واحدة بت ناس، هدية ورضية، مرت ضيوف وبتعرف الواجب"، ويرسلوها ليهو "طرد"، توفيراً للمال والجهد. ثم ابتسم -بمرارة- وحكى لهم قصة المغترب الذي طلب من أهله ان يزوجوه بهذه الطريقة البالية، وعندما سئل عن سمات زوجة الأحلام، أخبرهم بأنه يريدها بيضاء وطوييلة، وتكون شغالة. فكان أن أرسلوا له ثلاجة،"كولدير" ١٤ قدم.

مضت الامور هكذا، وقد انسلخت من سنيِّ عمر صاحبي عشرين عاماً ونيف (أم هي نيفٌ وعشرون عاماً؟؟)

الى ان تفجرت ثورة ديسمبر المجيدة، وما أدراك ما ثورة ديسمبر؟؟

تابعها بقلبه وحواسه كلها، منذ خلقت بيضة في الدمازين، وصارت يرقةً في الفاشر وزالنجي، ثم شرنقة في عطبرة، واستوت ثورة كاملة بالعاصمة المثلثة، شاهدها في الفضائيات والفيديوهات واللايفات والتسجيلات الصوتية في فيسبوك مارك وواتساب آكتون وجان كوم. ساهم فيها بدموعه وجيوبه، والكيبورد، نعى شهداءها وعانق جرحاها، حيّا الشفاتة والكنداكات، وأفرط في الإعجاب بـ"دسيس مان".

خلقت له عالماً موازياً، يعيش فيه آناء الليل وأطراف النهار، ثم كان موكب 6 أبريل الرهيب، واعتصام القيادة المهيب. تابعه بشغف، عاش داخل تلك الجمهورية التي انبثقت من تحت الرماد ككميونة باريس، وأفرزت، أو أبرزت كل ما ينطوي عليه شعبنا من نبل وجود ومكارم أخلاق، هتف مع الثوار، وعيناه تترقرقان بالدموع، ومارس الـ(طق، طرق، طق طق)، مع شباب أعالي النفق، أمعن النظر في الجداريات، وحفظ-عن ظهر قلب- الأغاني والأناشيد، والأهازيج، و"اتحرك قوم يا عبد الحي". ثم كان يوم سمع فيه -وبلا استعداد نفسي-تلك الاغنية الرائعة:(حا تسقط وحنعرس، نعرس كنداكة، كنداكة) وترد الحسان-بأصوات ملائكية-؛ (حا تسقط وحنعرس، نعرس شفاتة، شفاتة).

أهتز قلبه، حتى انخلع من جذوره، وخرج من قفصه الصدري وتقافز، راقصاً، في أرجاء الغرفة، ثم صعد هامساً، لدماغه: ونحن ليه، ما نعرس كنداكة؟؟

لم ينم صاحبي، ليلته تلك-ولا ليلتين تاليتين-، قضاها يفكر، ويفكر، و(يسف، ويتُف)، ومع آذان الفجر الذي نعى الليلة الثالثة، كان قد حسم أمره، واتخذ قراره، بالعودة للوطن، فالزواج ثم الاستقرار النهائي في بلد الثورة التي تلوح نذر انتصارها في الأفق.

انتظر شروق الشمس، بلا صبر، اغتسل وشرب قهوته على أكثر من عجل حديد، و"لستك محروق"..

وصل مبكراً جداً لمكان عمله حاملاً استقالته غير المسببة، وأقعى-ككلب- أمام مكتب المدير العام، الذي أدهشه وجود صاحبي أمامه في هذا الوقت الباكر، وردد في نفسه؛ خير، اللهم أجعله خيراً، ثم طلب من صاحبي أن يتفضل.

لم يناقشه مديره كثيراً، فالشركة-وكل الشركات- في حالة عدم استقرار، وكانت تتجه لتخفيض العمالة، بعد الأزمات التي لاحقتها جراء "حرب الديوك"، بين الخليجيين.

أخبر أصحابه بانه ذاهب للحاق بثورة الحرية والتغيير، واسكت صوتاً بداخله، يهمس؛" فمن كانت عودته للعمل مع الثورة، فهجرته لله ورسوله، ومن كانت عودته الى دنيا يصيبها، او كنداكة يتزوجها، فعودته الى ما عاد اليه".

ربط أمتعته وتحزم وتلزّم، ثم عاد الى بيته، مسلماً على الناس على عجل، ثم طار الى جمهورية القيادة العامة.

اندغم فيها، هتف مع الهاتفين وغنى مع الراقصين، واستمع للخطباء والمنشدين. وفى اليوم التالي، أقنع أهله بان يحملوا كبش الكرامة ويهبوه للمعتصمين.

واظب على التوقيع على دفتر الحضور الثوري في ارض الاعتصام الباسلة، مرتدياً البنطال والتي-شيرت والصندل، مطلِّقاً-بالتلاتة-الجلابية (التي لم يكن يرتدى غيرها في بلد الغربة، منذ انفصال الجنوب، اذ كان يعتقد انها لم تمثل "الزي القومي" قبل ذلك).

شارك في كل الأنشطة، من تنظيم الندوات الى حمل ألواح الثلج في رمضان، متجاهلاً آلام الظهر والركب التي كانت تزوره من حين لآخر، كان وهو يفعل ذلك "يتاوق"، هنا وهناك، لرؤية أوجه الكنداكات الصبيحة، وابتساماتهن الساحرة، ويرخى أذنيه لأحاديثهن وضحكاتهن العذبة، وهو يمنى النفس-طبعاً-بأن تبادله إحداهن وداً بود، وابتساماً بابتسام، في ساحة الاعتصام. لكن ذلك لم يحدث، وحدث -بدلاً عنه-، (ما حدس)، في ليلة غاب فيها عن الساحة، لآلامٍ في ظهره، فآثر النوم على سرير في بيته.

خلف الامر فيه جراحًا غائرات، وانطوت في القلب ثلاث حسرات: حسرة على الشباب الذي استشهد وضرب وعذب وسجن، وحسرة على مآل الثورة، وخوف من عدم تحقق أهدافها، وحسرة القلب المستدامة.

استعصم بمنزله لعدة أيام، حزيناً، مكتئباً، قبل ان يضطر للخروج يوماً ما، لشأنٍ ما. وبينما يسيرُ، ولا يغلبه السرورُ، سمع صوتاً ناعماً، يأتي من

خلفه،؛ (يا شفّاتى، يا شفّاتى.)، خفقان قلبه، فوّت عليه ملاحظة شاب وجيه يسير أمامه، وسيماً مثل الشهيد، عبدالسلام كشة، إلتفت، بابتسامة أغرقت وجهه وسالت مندلقة على صدره. رأى حسناء-تجتذب العيون، كأنها، في الأرض كوكب-، يافعة، قادمة في اتجاهه، وخيل اليه انه رآها أيام الاعتصام، فتمتم برقة؛ أنا؟؟؟ ابتسمت الفتاة-بدورها- وقالت؛

- انت شفّاتي يا عمو؟؟

تجاهل (الإهانة)، و ردّ:

- أيوة أنا شفّاتي كبير،

وآثر ألا يبوح ببقية ما خطر بباله، -بسبب كلمة (عمو)-؛ شفّاتي، وبسب ....، وبعمل (السيدة منى) كمان.

أفاق على صوتها؛

- يا عمو ما تبقى كضباشي، زمنكم ما كان فيهو شفاتة.

قالت ذلك-ببساطة-ثم تجاوزته شاخصةً بعينيها الجميلتين نحو الشاب الذي يشبه الشهيد كشة.

لعن في سره كضباشي وحميدتي وتجمع المهنيين، وقوى التغيير، ومحمد ناجى الأصم.

.اااخ يا ركبتي، ثم اتجه-وهو يعرج- نحو أقرب صيدلية.....

--تمت--

عِدة الشُّغُل

-يا دكتور تعال شوف الولد ده.

قالتها الممرضة في هلع ظاهر.

جريت، لأكشف على طفل، رضيع، عار كليًا، على طاولة الكشف. كان في حالة "جفاف" بيّن، لا أبالغ، إذا قلت إن جسمه كان خاليًا من الماء تمامًا، هذا الطفل ليس جافًا، بل هو يابس. فكرت ان ما ينقذه من الموت، ليس أن يشرب الماء، بل أن يشربه الماء. لهذه الدرجة-وبلا مبالغة-كان جافًا.

أمليت على الممرضة ماذا تفعل، وشرعت-هي- في تنفيذه، بسرعة وجدية. وخرجت-أنا- إلى ردهات المركز الصحي، القابع في أحد أحياء امدرمان الطرفية جدًا، طفقت ابحث عن الأم، التي قيل انها - ويا للعجب- خرجت لتبحث عن ماء، تشربه. تذكرت "فرحات عباس":

قطرة ماء، تشربني

فأنا أقضي ظمأ"،

أيعز عليكم، أن أظمأ،

(كنت أود مقابلة فرحات، لأقترح عليه، أن يستبدل (يعز)، ب(يهون)، لكن تلك قصة أخرى.

أعذروني-سيداتي، سادتي-، فكثيرًا ما اسرح في آفاق داخل نفسي وانا أعمل).

انتظرت أم" الطفل اليابس"، عند المدخل، وانا أفكر: كيف بلغ الطفل الرضيع هذه المرحلة من الجفاف؟ أهي نزلة معوية؟ هل ضربت "الكوليرا"، المنطقة، و"نحن ما عارفين"؟؟ هل هو مريض بمرض خلقي/وراثي، من النوع الذي يصيب الأطفال بإسهال/قيء مزمن؟؟ ولماذا لم تأت بالطفل للمركز، قبل أن يصل مرحلة ما قبل الموت، هذه؟؟

واجهت الأم النحيفة، البائسة، متحجرة الدمع على المآقي، بكل هذه الأسئلة-دفعة واحدة-، حالما دلفت إلى أرض المركز، وأُشير لي نحوها. نفت

أن يكون بطفلها، أي مما ذكرت من الأمراض، وحينما قلت لها، خبريني- إذن- كيف وصل به الأمر إلى هذه الحالة المتأخرة؟ استعصمت بصمت حزين، لم تفلح كل محاولاتي وما درسته من "مهارات التواصل"، في زحزحتها عنه. ولما وقف حمار شيخي في عقبة الحيرة، رفعت عيني عنها، أتلفت يائسًا، فالتقتا - أي عيني- بعيني الخفير، والذي كأنما كان ينتظر هذه اللحظة بفارغ الصبر، فأشار إلى أن أتبعه، ثم إنحاز إلى شجرة غبشاء - بفعل الغبار-، لكنها ظليلة، -في ذلك المكان، والزمان-، تبعته بسرعة، تاركًا المرأة مطرقة إلى الأرض، فلم تنتبه لما يدور، لكنها-حتمًا- ارتاحت لمغادرتي وخلاصها من جحيم الأسئلة.....

تحت تلك الشجرة، دار حوارنا: -

--يا دكتور ما تتعب نفسك، ما حتتكلم.

--منو الما حيتكلم؟

--أم الطفل الداير يموت ده.

--ما حيموت-يا عم عثمان- (كنت اعرفه)، لكن

ليه هي ما عايزة تتكلم؟؟

--يا دكتور، دي حاجات انتو ما بتعرفوها، ولا

درسوكم ليها في كتب الطب.

(ابتلعت الإهانة، وانا الذي درست في جامعة، تقوم فلسفتها، على الارتباط بالمجتمع (Community Orientation). ثم سألته:

-- انت عارف؟ قول لي.

خفض صوته، حتى صار همسًا،

--الست دي، -ومثلها كثيرات-تقوم ب(تأجير) طفلها، للشحادات، ليتسولن به أمام البقالات الكبيرة، وتقاطعات الشوارع، حيث تتوقف العربات،

--لكن ده صغير، لسه برضع.

نظر إلى كمن ينظر إلى عبيط، وأردف:

--ما هو ده المطلوب، ده "عدة الشغل" يا دكتور، في ناس ما بتتعاطف مع المره(المرأة)، إلا تكون شايلة شافع.

ألجمني الذهول برهة، ثم قلت ببلاهة:

-- طيب الجاب ليهو "الجفاف" شنو؟

هذه المرة، أيقن بأنني "عوير، عديل كده"، إذ قال بصوت لا يخلو من حدة:

--يا دكتور انت ما بتفهم؟ "كلاب الحر" ديل،

حايماتن بيهو تحت الشمش من تشرق، لامِن

تغيب، وطبعًا لا برضعنو، ولا بشترن ليهو الموية الغالية، ام عشرين جنيه، دي.

سكت فجأة، وقد شلت إفادته الأخيرة، تفكيري، و "برَّدت حيلي"، مضى وتركني باركًا، أضغط بكلتا يدي على رأسي، لتمنعا، دماغي من الانفجار.

لا أدري، كم مضى على من الوقت، لكني (وقفت على طولي)، ونفضت التراب من بنطلوني فوق الركبتين، ثم تحركت، وقد بت موقنًا، أن ما ترتكبه أم الطفل المذكور، ما هو إلا جريمة مكتملة الأركان، ولا بد من التعامل معها، (بالغانون)، لذلك-بعد أن عدت إلى عيادة المركز، واطمأننت، على تحسن حالة الرضيع-، وسريان الماء في عروقه أسرعت إلى قسم الشرطة، لا ألوي على شيء. طلبت مقابلة الضابط، المسؤول، بادرني بالترحيب، كان شابًا بشوشًا، ذو خلق وتهذيب.

استمع إلي، بكل جوارحه، وانا أحكي له القصة "من طق طق، لسلامو عليكم"، لم يقاطعني، البتة، استمع إلى كحاكم عادل ينصت لنبضات قلوب شعبه(ههه)، ختمت حديثي بحماس، يطالبه بفتح بلاغات ضد تلك السيدة، تحت طائلة القانون الجنائي، وقانون حماية الطفل، هنا ابتسم الضابط برزانة وقال-بأدبه الجم-:

--حاضر يا دكتور، انت تتكرم ترجع مركزك، وانا حاقوم-بنفسي-بالتحري حول الموضوع وقبل نهاية اليوم، حأجيك في مكانك، واوريك حنعمل شنو.

خرجت منه، وقد زال عني بعض غم، وعدت اواصل عملي، بنصف عقل ووجع -لا أدري كنهه- يعتصر قلبي.

حوالي الخامسة مساء، جاءني الضابط، بملابس مدنية نظيفة، وانيقة، أخفت هويته المهنية، لكنها لم تنجح في إخفاء ما يبدو عليه من رهَق.. حياني دون ان يجهد نفسه بتكلف الابتسام، وجلس-دفعة واحدة-، دون أن أدعوه لذلك-كما جرت عادة الاتيكيت-، قال بصوت كئيب، لكنه حاسم، باتر:

-- زي ما قلت ليك، يا دكتور، قمت بالتحري، واقول ليك بصراحة؟ ما حأعمل اي حاجة للست دي.

نظر إلي بتركيز، وكأنه ينتظر ردة فعلي (القوية)، لكنني اندهشت، للمرة الثالثة في ذلك اليوم، لم أرد، وإنما رفعت إليه حاجبين متسائلين.

--المره(المرأة) دي، عندها سبعة شُفَّع، أكبرهم عمرو حداشر سنة، وأصغرهم مريضك ده، زوجها، مشى الدهب، ومن سنتين ما جاء راجع، غِنى وشرد مع مره تانية؟؟ ممكن. انهار بيهو بير تعدين؟، جايز.؛ راح، مات بالعطش؟ بحصل كتير.... كتلو الزئبق؟؟ الله اعلم....

السيدة العظيمة دي، عايزة تعيش عيالا ديل، طبعًا طلَّعت الفي عمر التعليم، من المدارس، ده ترف، ما بقدروا عليهو، وهسه ببيعوا موية في سوق ستة، أو سوق ليبيا، أو أم دفسو، لا فرق. ومريضك ده؟؟ انت عارف.

خيل إلى أن صوته يأتيني من بئر سحيقة، أو قبر موحش.. بعد هنيهة صمت، سمعت نفسي اقول:

--لكن يا جنابو، ما لازم تعمل ليها حاجة، دي-في النهاية- جريمة، بل جرائم، في حق الأطفال.

-- أعمل، ليها هي؟؟ ما بقدر، قول لي انت، اعمل شنو؟؟

أطرقت، حككت صلعتي، نظرت إليه، دون أن أراه، وحينما نطقت بكلمات شكر في حقه، كان قد ذهب.

نظرت من النافذة، فرأيت حمرة الشفق، تغطي المكان، تأوهت، مرددا، بيت "محمد الواثق":

إن الحكيم، الذي ترجو المساكين

قال الثقات لنا، لا شك مجنون.

--تمت--

هوامش:

--لا تنظروا للقصة دي بمقاييس الأدب، لأنها حقيقية، ما "حصلت لي"، لكن "حكاها لي واحد" صاحبي، ويمكن مراجعته، أنا - كأي متعلم سوداني--زول نرجسي، بحب احكي بضمير المتكلم، (أنا).

-قام صديقي بالاتصال بمنظمةَ وبعض خيرين، وأسهم في دعم هذه الأسرة التعيسة بمعينات البقاء على قيد الحياة، لكنه يتساءل - وانا معه- كم مليونًا من مثل هذه الأسرة يحتاج لدعم حقيقي؟؟ وليس كدعم إبراهيم البدوي.

- كان صديقي قد حول طلبه للضابط بفتح بلاغات ضد المجتمع كله والحكام منذ الأزهري، وحتى حمدوك، فضحك الضابط واتهمه بالجنون.

قلوب في الغربة بكاية 1

طالع من محطة مترو "محمد نجيب"، في حي "عابدين"، وسط القاهرة، رأيتهما يتحادثان، سودانية حسناء، صغيرة السن وشيخ في مثل سني تقريبًا، انجذبت إليهما لا إرادياً، ربما بفعل حبنا الشديد لمواطنينا في الغربة، رغم كراهيتنا لبعضنا البعض، -حد الحرب- داخل الوطن..

سمعت طرفًا من حديثهما قبل أن يفترقا، كانت تصف للشيخ -الذي هو في مثل سني- مكانا ما، قريب؛

- شايف تمثال "محمد فريد" داك؟؟

-هو ده تمثال "محمد فريد"، ولّا "طلعت حرب"؟؟

قلت لنفسي، إن "عمّك"، هذا، يريد إطالة الحديث مع حسناء في سن عياله، وأنا -لعلمكم- سيئ جدا، لذا تسوء ظنوني....

جنوب التمثال... شمال التمثال...، شرق التمثال، خليهو في ضهرك.. لم أكن أميِّز، ما كانت تقول.. لكني ايقنت-بلا منطق- أنني أعرفهما، ولحظة وصولي مكانهما وقد هممت، إن أتدخل في حديثهما، مستعداً، لقول:

لا تجرحي التمثال في إحساسه،

فلكم بكى في صمته تمثال.2

(ولان - في الغربة- الكلفة مرفوعة، كثيرًا ما كنت أعمل مداخلات زي دي- كعربون تعارف-)، اقول انه في تلك اللحظة، و قبل أن اتفوه بكلمة، قالت الفتاة، للشيخ:

- باي يا عمو..

لاحظت ان الرجل حدق خلفها مشدوها، فاغرًا فاهُ، نصف "فغرة"، لو جاز التعبير.. إنتظرته ليعود من "سرحته" فأقول:

- إزيك، يا عمك.

نظر إلى بحدة، -ربما لأني رددته، لأرض الواقع الكريه، وربما لأن من خاطبه بـ"عمك" لا يقل عنه عمرًا، إن لم يزد-، فابتسمت، وقلت:

- كلنا في الهوا سوا، حبيبت "أهاظرك".

- حبابك. وكلنا في اللجوء سوا.

وأرسل آهة حرّى، وذكر إسمه، فقمت بدوري، بذكر إسمي، ثم سألته - بفضول جلف، نغفره لبعضنا، البعض، ربما لأن وراءه حسن نية، أو رغبة في المساعدة، نفترض ان "المسؤول"، يدركها-:

- البت دي كانت بتوصف ليك ياتو مكان؟؟

لكن هذا "المسؤول"- بالذات-، لم يغفر جلافتي، و رد-بجفاء-:

- وانت مالك؟؟

ثم -على غير توقع مني-، انفجر ضاحكًا، وقال:

- محل ببيع حاجات سودانية، حبيت اهاظرك، هههههه.

- خايف اقول ليك، داير منو شنو؟؟ تلدغني تاني، هههههه

- تمباك، اها، ارتحت؟؟

ثم ضحكنا سوياً هذه المرة، بصوت عالٍ، لفت إلينا أنظار المارة، المصريين... قلت له، إني ذاهب إلى نفس المحل، فهيّا بنا. سألته هل زار القاهرة من قبل؟ رد -باقتضاب-:

- زمان..

استنتجت أنه لا يريد الاسترسال في الحديث، ولكني كنت مخطئاً، فبعد إن وصلنا إلى الدكان المقصود، واشتري كل منا ما يريد، و"بقينا مارقين"، إلتفت إليَّ -بكل جسده- وقال: -

- إسمع إنت وراك شنو؟؟ قصدي عندك حاجة ماشي ليها؟؟

- وراي شنو يعني؟؟ شغل؟ عاطل طبعا.

- طيب، ارح نقعد لينا في قهوة، زي الشفناهم في الأفلام المصرية، وروايات "نجيب محفوظ".. نتعرف زيادة، ونثرثر.

- يللا، لكن انا عازمك.

- ما فارقة، كلنا لاجئين، مُفلِسين وعطالى.

- يا زول انا ما مَفلِّس، عندى قروش كتيرة، أحمد الله.

- هههههه، طيب كلنا، مُفلِسين، -بضم الميم، وكسر اللام دون تشديدها-.

- كيف يعني؟؟

- ما عندنا (مشروع وطني) ...

قهقهنا، ضحكنا -بهستيريا- حتى لفتنا إلينا -هذه المرة-، أنظار المارة السودانيين..

عندما طلبنا قهوتنا، كان كل جليد بيننا قد ذاب، وكل حاجز قد سقط، -اقصد الجليد والحواجز التي تقوم بين من يلتقون لأول مرة-، وصرنا نتجاذب أطراف الحديث بعذوبة وسلاسة، بلا كلفة، قال:

- إنت جايي من وين؟

- قصدك لاجئ من وين؟ مااا "اهلك من وين"؟ صاح؟؟ لأنو الأخيرة دي بتزهِّج.

- فليكن..

- من "جدة".

- يا زول، يعني مغترب، ما لاجئ؟؟

- ابدأ، انا اكتر زول بنطبق عليه لفظ لاجئ، كنت مغترب، أنهيت تعاقدي، أو قول، طلعت المعاش، بلملم في أطرافي، وماشي راجع علي بيتي، الما خمج، هههههه، قامت الحرب... البيت نهبوه الجنجويد، وسكنوا فيهو، وبعد مرقوا منو، تاركينه خرابة، مكيفاتو شالوها، "جيش الهنا" رسل ليهم دانة، دكت البيت، دكًا، دكًا، فاصبح هشيمًا، تذروه الرياح،... رجعت ليهم، ناس الشغل، سألتهم -إلحافًا- أن يجددوا عقدي لسنة أخرى، سنة واحدة بس... قالوا لي: (too late، البِنَيِّة ادَّوها) قصدي الوظيفة..... شلت بقجتي، وجيت بي جاي.

- وعيالك.؟؟

- ما عنديش، هههههه، بح، انا ما اتزوجت، اوع تقول لي ليه؟؟....

ياخي قول... شاكوش..... انتهى، موضوع جديد... ههه.. جا دورك تحكي عن قصة لجوئك، ومغامراتك في الحرب.. ههههه

- اما انا، فلا أحب الحديث عن الحرب... بستغرب الناس بستمتعوا يحكوا، أو يستمعوا للمآسي... شعب عجيب... يا زول.. باختصار، شفت الموت... النهب... الاغتصاب لناس قراب مني.. السرقة، الاستغلال،.. كراع طايرة، راس مفجخ، جثة تاكلها الكلاب... العجز، العجز.. ياخي خلينا نقفل على القرف ده، حرب اللا أخلاق، أو هي حرب ضد الأخلاق...... نقطة، موضوع جديد...

ثم، بصق قرفه واشمئزازه الواضح، على بلاط القهوة...

صمتنا لفترة ليست قصيرة، سبح فيها كل منا في أمواج بحر هواجسه الخاصة، لكن يبدو ان رغبة البوح عند صاحبي، كانت غلّابة،.. افقت علي صوت "كشكشة" كيس تمباكه، قال - بعد ان وضع "سفة" خلف شفته السفلي، جهة اليسار، ثم ضغط عليها-:

- إنت -قبيل- سألتني: البت دي وصفت ليك وين؟؟ وما سألتني: البت دي منو؟؟

- إنت بتعرفا؟؟؟

- ابدأ، اول مرة اشوفا، لكن أتعمدت اتكلم معاها -هي بالذات- طبعا بحجة أنها توصف، لي مكان محدد.

تمكن، بمهارة-ربما كانت تلقائية عنده - أن يشحذ فضولي، ويستحوذ على انتباهي، كاملا..

- إشمعنى؟؟

- لأنها بتها.

- بت منو؟؟

- بت ام بعلو، هههههههه، بت "الحنان" السابق..

هنا لم أستطع مقاومة رغبة عارمة لمحاولة استكناه صاحبي الجديد، رغبة عرفت انها، قد تقودني، لتفويت بعض ما يقول من "دُرر". هكذا فكرت، فقلت:

- دقيقة، خليني احاول افهم، خليك ساكت..

اخذت افكر في هذا الرجل الغريب، يبدو انه متعلم تعليماً، عاليا، ومثقف، لكنه لم يكن "برجعاجياً"3، إطلاقاً، يبدأ موضوعه، متحدثا، بلغة المثقفاتية، الكبار، ثم لا يلبث أن ينحدر إلى لغة الشوارع، والعامة، بل -احيانا- كلام "قاع المدينة"،... رايته صارمًا، جادًا، في البداية، ثم وجدته، مرحا يحب الهظار.... في البداية ظننت انه، عجوزٌ، متصابي، يعاكس، أو يتحرش بفتاة صغيرة، فإذا به يريني غفلتي، إذ ظننت، بأن الاشياء، هي الأشياء...عدت إليه:

- أوكي، واصل..

- خلاص، الحكاية كملت... شفتها، اندهشت، عاينت لساعتي في الموبايل، الوقت التاريخ، جاني خاطر، إني في أحد مسلسلات الأطفال ديك، تركب حاجة كده، تخش بيها في زمن تاني، تمشي بيك المستقبل، الماضي... كنت داير أتأكد، إنو المترو بتاع الناس ديل ما مركبة من النوع ده، وانو ما رجع بي تلاتين سنة... حسيت برغبة عارمة في سماع صوتها، عشان كده، وقّفت البت، - ب:"لوسمحتي"-، واخترعت حكاية الوصف دي، مدعياً أني لا أعرف المكان، ويااا لصوتها لما سرى، ياهو زاتو، إتأكدت.. بعد داك جرجرتها في الكلام، عرفت أنها تدرس الفلسفة، في كلية الآداب، بجامعة القاهرة، سرني ذلك، و"اندحت" في الحديث، قلت لها -ولا ادري لماذا-: كان قريتي التاريخ، ما كان أحسن؟؟ قالت لا، فهي كانت تقرأ الفلسفة للإطلاع العام وعندها عنها، معلومات ما بطالة، على حد تعبيرها، لذلك رأت أن دراستها سهلة بالنسبة لها، هنا غمغمت -في سري-: مثل أمك، تحبين الحلول السهلة- هههه، انا ايضا افهم قليلا في الفلسفة، فاستغللت ذلك، لفتح حوار يدفعها للبقاء والكلام معي، سألتها عن المعني القاموسي ل"السفسطائية"، قالت إنها منهج إدارة حوار، بحجج ملتوية، من اجل الفوز بالنقاش، في امور هامشية، او شئ من هذا القبيل، وطبعا انا لم أدر معها هذا الحديث إلا للاستماع لصوتها، لا إمتحان معرفتها، ولا تقييم معلوماتها عن أشياء انا نفسي، لا ادري عنها غير نذرٍ يسير،.... لكنها ادهشتني-حقاً- حين قالت-بعد ان اوضحت لي المعني-: "السفسطائية" دي، زي الفي كتابات مثقفنكم، -كأنها ليست منا- مثقفنكم، حملة "الدالات"، د. فلان و د. علان، ضحكتُ وقلت لها بلا وعي مني: ناس (الكيزانوفوبيا)،

العندهم (قحتوفوبيا)؟ ..... وجمت، تطلعت إلى كما تنظر لمجنون أو سكران، فأدركت أن صوتها، وتأكُّدي من أنها "إبنتها"، قد اخرجاني عن طوري، فرجوتها أن تعيد ذلك الوصف، لتذهب، ففعلت، و"اتخارجت" مني.. ههههه.

كان استغراقه في الحديث، وانفعالاته خلاله، يدلان على إن الذكرى قد هزته عميقا، ذكرى لم ينسها لشدة تغلغلها في نفسه..

قبل أن أعلق بأي كلمة، استرسل:

- انتهت قصتنا لسبب أو آخر، لا يهم، لكن الحارقني لي هسه، إنو يوم زفافها، -وقبله كنت، اتهيأ، بـ(في الليلة ديك)4، و(ويوم، في يوم غريب) 5، هههههههه، اليوم داك، قبضوني ناس الامن من الصباح، وشغالين فيني دق، شي بالسيطان وشي بالعكاكيز، وشي بي خراطيش الموية، وشي كفيت وشلاليت، الناس -بمن فيهم هيَ، طبعًا- هناك، طربانة، تغني وترقص، وأنا في (البريكات) من التعذيب اردد قول الحكيم: شلاليت الدنيا، لا تأتي فرادي...

بعد برهة صمت، ظننت خلالها، أنه ينتظر مني تعليقا، مواساة، بضع أسئلة، بما انه آثار فضولي، قلت-كأني أحدث نفسي-:

- فعلاً، يااا صوتها..، يا حبيب، ممكن اعرف إسم "أم بعلو"؟؟

وضحكت ضحكة قصيرة، حتى لا أبدو كفضولي ملحاح، بتاع شمارات.. قال-بلب شارد، وبلا مبالاة-:

- عاتكة الطيب6، الصحفية المعروفة.

ذهلت حتى سقط كوب القهوة الثالث، من يدي، محدثا، فرقعة في جو القهوة الساكن، في هذا الوقت من اليوم، فانتبه الزبائن، وانهالوا علينا بكلمات التقريع، وجاء إلينا صاحب القهوة مسرعا، وصائحا:

- إيه؟ إيه؟؟ إنتو ما بتحسُّوش؟؟ واحد يبصق في السراميك والتاني يكسر الكباية، ادفعوا لي حسابي، واخرقوا7 من هنا.. برة... عالم بهائم..

وغمغم كلاما، - ربما صب فيه، لعناته، علينا، و على حميدتي وبرهان،- لم اسمعه، ولو سمعته، لما رددت عليه.

نقدت الرجل فلوسه، وعند اول خطوة خارج القهوة، سألني صاحبي:

- مالك يا زول؟؟

- والله السودان ده، ضيِّق خلاس.

--تمت--

---

1 اقتباس من أغنية (عيون في الغربة بكاية)

2 من قصيدة لنزار قباني.

3 نسبةً لـ(البرج العاجي).

4 اغنية زيدان ابراهيم.

5 أغنية سيد خليفة.

6 لو تشابه هذا الإسم وإسم شخصية حقيقية، فهو من باب المصادفة المحضة.

7 اخرجوا، باللهجة المصرية.

قطر الدمازين خط الرصيرص

في طريقه نحو النهر، أخذ يترنم-في شجن ظاهر، وقاهر:

- رحت في حالك نسيتني.... واعتبرت الماضي فات...

سمع صوتاً من خلفه، صوت إمرأة،صوتها:

- لما إنت، إنت خلاص جفيتني،

ليه بتحكي، الذكريااات...

إلتفت، "مخلوعاً"، -لا كما البشير، لكن بالمعنى السوداني حصرياً، لهذه الكلمة- لم يجد احدأ.. لا بد أنه يهلوس.. تذكر فجأة، انه في زمانه ذاك، وفي هذه البلدة، قد راجت شائعة، بأن (فلانة- حسناء المدينة، التي ماتت، في ميعة الصبا- قد قامت "بعَّاتية") وكان حينها قد تمني-على سبيل المزح- ، مقابلتها.. تري هل استجابت لرغبته الآن؟؟... إبتسم... أم لأن أذنه، قد أعطبها صوت الرصاص والدوشكات، والحاجات البترميها الطيارات فوق الرؤوس، فتهلك الناس، والحرث والبهائم، والبنيان، والله لا يحب الفساد... لذلك نفد بجلده، من حفلة الجنون، تلك، ولاذ بمرتع صباه، هذه البلدة الهادئة، الهانئة، على ضفاف أعالي النيل الازرق العنيد.... وهاهو -بعد أن رمى "بقجته"، - في الغرفة التي استضافه فيها -كنازح-، صديقه القديم، يغذّ السير تجاه النهر... تحديدًا، إلى شجرة "العرديب" الضخمة على ضفته... كل من عرفه، من اهل البلدة، كان علي علم بانه على علاقة خاصة، بهذه، (العرديبة)، لأنه كان يقضي فيها ومعها الساعات الطوال، حتي قال المرجفون في المدينة، بانه كان يختبئ داخلها، ليدخن "البنقو"، ثم يسرح في آفاق غامضة، داخل نفسه...

كان يتسلق "عرديبته"، ويتمدد على أضخم أغصانها، يمضغ بعض اوراقها-ذات الحموضة اللذيذة-، ويخزنها-كالقات- في فمه، ناحية اليسار، ثم يبتلع الرحيق...ساعات طوال، قضاها يناجي، يناقش، يناقر هذه الشجرة الصديقة الحنون، ومن فوقها، كان ينظر إلى النهر الشاب المندفع نحو الشمال، مساحة النهر التي يراها -من موقعه ذاك-، كانت محدودة، فالنهر-

عند العرديبة، يظهر من منحنى، ليغيب عند آخر، محتفظاً، بأسرار البدء والختام، أو ليظل في ذهنه، كحكاية، بلا بداية، ولا نهاية..

كان احيانا يتوقف عن حواراته مع الشجرة، وينظر إلى النهر، واثق الخطوة يجري، في اندفاع شجاع، حد التهور، من يرونه في اواسط البلاد وشمالها، يظنون أنه قوي التيار، غلَّابهُ، ليتهم يرونه هنا في أعاليه، إذن لآمنوا بسطوته، ولعلموا، انه-عندما جاءهم- كان قد إنهزم، وشاخ.

كم تابع -وصديقته العرديبة- اسراب طيور، لا يعرف انواعها كلها، -كان من ضمنها، "السمبرية"، شعار المديرية*- تطير من ضفة إلى اخري، في علو منخفض، تكاد تلامس المياه، وطيور اخرى تحلق في علو شاهق... كم مرة رأى جثثاً طافية، تبين بعد أن حدق فيها بعيني صقر -رغم بعد المسافة النسبي- أنها لأشجار، ربما ماتت- كغيرها- واقفة، ثم عبث بها (الهدام)، وتيار الماء بعد أن آل حالها إلى لا قوة، ولا حول.. احيانا، يتأمل بنات الغلابي وهن يغسلن الملابس، في مياه النهر مباشرةً، ثم ينشرنها على صخور سوداء على الشاطئ، يقمن بهذه المهمة البائسة، وسط اغانيهن المرحة، وضحكاتهن العذبة، ويا للعجب.... وصبية، يلهون،-ويتعلمون العوم- في مكان ضحل قرب الشاطئ، وبالغون يتسابقون، سباحة، إلي منتصف النهر، او ضفته الأخرى... احياناً، تمر مراكب، تحمل أخشابا، أو "سمَّاكة"، يحملون شباك صيد، لا يدري اين ينصبونها....كان يرى السقائين، خلف حميرهم يملؤون "اخراج" الماء، المصنوعة من الجلد المدبوغ يدوياً، ليبيعوا الماء، ليس في حارتهم، حارة السقايين، ولكن في أحياء البلدة العطشى-كإبل الرحيل- وهي ترقد علي ضفاف السقيا العذبة ولم تتكرم أي حكومة، بإمدادها بماء الشرب النظيف إلا في عام 1985، وكم تعاطف، مع حمارٍ ناء بحمله، جراء الجوع والإرهاق، وانزلق في "المشرع" فلم يجد غير السوط-والقسر على النهوض بسحبه من ذيله- معيناً في كربته.

الآن، لم يعد قادرا، على تسلق جبال الحياة، ولا الشجرة، فاكتفى بالجلوس تحتها، مستعيدا الذكريات، ومكرراً نفس الطقوس، عاقدا، المقارنات بين منظر النهر- وما يدور فيه، وقربه- زمان، والآن...

لا بنات يغسلن الثياب ولا حمير تحمل الماء.

كان هنالك عديد من النازحات والنازحين، يلعبون دور السياح، يزورون النهر ويندهشون لعنفوانه، فرحين، لأقصى درجة، إن كان ثمة فرحٍ لنازحٍ، - عانى كثيرا من الخوف والجوع، ونقصٍ في الأنفس والأموال والثمرات- ، فرحين بالطبيعة والجمال....

تدور بينهم الحوارات عن هذه البلدة، ولِم اختاروها، -دون سائر مدن، وبلدات، وقرى، هذا الوطن الذي كان ممتدًا، لمليون ميل مربع-، وكيف ضاقت بهم الارض- بما رحبت- حين ولوا هاربين، إليها، من مطرقة الموت، وسندان الفاقة.

كانوا، زرافات متفرقة، ووحدانا، -من قبائل قِبَل البلد الأربعة- يمرون من أمامه والشمس مائلة إلى غروب.... طرقت اذنه، "طراطيش" من كل حكاية، حوار، ونسة:

- صحي الجنجويد شالوا مكيفات بيتكم؟؟

- والدانة الوقعت جمب بيتكم، نعل ما كتلت زول.

- هم ناس (عشة)، عندهم منو برسل ليهم من اللمارات؟؟

- قال ليك أرض الهلال بقت تنزانيا، وأرض المريخ ليبيا..

- والله ما عارف، يمكن نموت، قبل تقيف.

- كنت في الثانوي، آخر مرة جيت الرصيرص دي.. -الزمن داك، إنتي ما ولدوك-، عشت هنا سنة كاملة، وهسه جابني الحنين، يعني الحنين خلاني اختار النزوح ليها، بدل بورتسودان، وكسلا، ونهر النيل...

إنتبه بحدة... نظر في اتجاه المارين، أمامه، في رواحهم، من النهر، إلى البيوت، كانتا الأخيرتين، وكان آذان المغرب، يرفع في سماء البلدة، من جامعها العتيق.. شيءٌ في صوتها-لما سرى-، دعاه للقومة من مكانه، - بأقصى سرعة تسمح بها سنه-، وتيع المرأة والشابة التي تصحبها، وتناديها بـ"عمتي"، دون أن تلحظاه، بطبيعة الحال:

- حنين لمنو يا عمة؟؟، اكيد ما نحن، نحن بنجيكم، -في الخرطوم تلاتة-، كل إجازة مدارس....

أوووه my God، تكثف انتباهه حد الإندغام في الحوار، هجمت على ذاكرته، المترنحة: (انا، دستوري نازل، في الخرطوم تلاتة)، ابتسم... نظر للمرأة والفتاة، ـ وهو خلفهماـ، كانت الاولى ترتدي ثوباً- سودانيًا- ازرقًا، أعاده لزمن: (حليلك وانت جنبي، في الزي السماوي.)، ولم يهتم بما تلبسه الفتاة.

ـ ليه ما تقولي، حنين لشنو؟؟، يا بت، يا خبيثة، يا بتاعة الشمارات،

لكن-بصراحة- سؤالك في محلو...

صاحت الفتاة بفرح الظافر:

ـ أُهُمممم، طيب، أحكي.

ـ كنت في أولى ثانوي، وكان في تالتة، كان بشرح لي رياضيات وفيزياء، و..... وكل المواد، تقريبا... المهم، حبينا بعض، ما في زول قال للتاني حاجة، بس كل لقاءاتنا، غياباتنا عن بعض، صاحباتي وأصحابو، كلو بشير لي كده......

ـ وبعدين يا عمتي.

ـ انتهت السنة، وأهلي قرروا ارجع أواصل القراية في الخرطوم.... قلت- وانا احاول تخفيف وقع الصدمة عليه-: وانت طبعا، نتيجتك حتظهر مقبول في جامعة الخرطوم، ونتلاقى عندنا، وجم، ثم قال: بسافر معاك، هلعت: سجمي، تسافر معاي وين؟؟.. ضحك، ما تخافي، قصدت اكون معاك في القطر، حأمشي، اقعد عند أهلي في الفتيحاب، بعد داك ممكن نتلاقى every now and then، لحدي ما النتيجة تظهر، واعرف راسي من رجليّ....

ظل يسير خلفهما -كحرامي الحمير- متلصصاً، كان صوت السيدة مسموعا- بل، عالياً-، ربما لضعف سمع، أصابها فصارت "تكورك" بالحديث.. مصائب قوم، جلبت له فائدة...، استدرك أنها توقفت عن الحديث، منذ عدة ثوان، حين سمع الفتاة تستحثها: -

ـ يللا يا عمتي، وبعدين..

ـ ما جا....

تسارعت خطواته، حتى تسارعت ضربات قلبه وانفاسه، تجاوزهما، ثم وقف امامهما، ينظر إلى السيدة، فاوشكتا على الصراخ، وشرعتا في الجري، او الهرب، لكنه قال-كأنه ينهرهما-:

- دقيقة يا....

.. (وذكر اسمها)، راعها الصوت، فامسكت بإبنة أخيها حتى لا تسقط، ونظرت نحوه.. تأملها، نظارة سوداء تخفي العيون، تري هل ما تزال ناعسة، أم "نامت عديل"؟؟ وكأنها قرأت خواطره، فخلعت نظارتها وحدقت في وجهه بتركيز:

- ده إنت؟؟

- تصدقي؟؟

- عرفتك من صوتك بس.

- (من بعد فرقتنا ديك مين كان بيفتكرك تعود)؟

- عودة شنو، يا وهم؟؟

وما تاكلني حنك يا خاين.. ما جيت ليه؟؟

تكلما بكل بساطة الدنيا، كانا يتحدثان، كأن لم يمر على افتراقهما خمسة وثلاثون عامًا، (وكأنو، لا دمع إنذرف، لا خيوط قلوبنا اتقطَّعوا)... عيناها في عينيه، خلع نظارته الطبية، الهالات حول العينين، والتجاعيد علي الجبين، وفي أركان الفم، جانِبَي اللَمي، -وما أدراكَ، ما اللمَي-، وفي الرقبة، كلها إختفت....

تماسكت واستقام عودها، انسلت الفتاة، -من بينهما- وجلست -على جذع دومة-بعيدا، لكن بحيث تراهما، ولا تسمعهما، تصافحا و(ساب، إيدو، عِنية، فوق يدها)..

- إنت متذكر؟؟

- كل كلمة..

- طيب، ليه ما جيت؟؟ ليه ما جيت؟؟ ليه ما جيت؟ سِبتَ السفر؟؟ ياخي تعال ودِّعني...

- اقول ليك شنو؟؟ والله، ووحاتك إنتي....

صمت دهرًا، بللت خلاله الدموع وجهه، ووجهها، ثم نطق:

- القطر فاتني، ما لقيت "برينسات"، كلهن اجرتوهن إنتو يا السافرتو اليوم داك، ركبت لوري، اتعطل، مشيت كداري، جريت، شفت دخان القطر مارق من المحطة، ......

تنهد، سكت...

- ومن يومها، كم قطارات، وكم لواري وطيارات، فاتتني..

مصدقاني؟؟فاهماني؟؟ مسامحاني؟؟ آآآآه.

هزت راسها، أن نعم..

متماسكين، سارا، نحو البيوت، وفي صمتٍ، تبعتهما الفتاة، مغرورقة العينين، بالدموع...

--تمت--

*** طائر السمبر كان شعار مديرية النيل الازرق، التي تضم الجزيرة والنيل الابيض، أيضًا، قبل يفتتها حكام التجزئة، إلى ثلاثة (ولايات).**

فانتازيا الكلب

(قصة مااا جميلة)

أمي، لم تكن تحب الكلاب، لكن، ولدهشتي -منذ ان وعيت على هذه الدنيا-وجدت كلبًا عجوزًا، في منزلنا، وكنت أسأل أمي، هل هي لا تحب هذا الكلب، بالذات، أم أنها، لا تحب فصيله، كله؟؟

وتضحك أمي، وتقول: الإتنين.

كبرت، ودرست، ووجدت ما يقال عن وفاء الكلاب، وأنها عدوة اللصوص، لذلك تحمي الناس منهم، صحيح انها لا تفعل شيئًا، غير النباح- فانا لم أسمع أن كلبًا قد عض، حراميًا- لكنها كانت تفضحهم وتنبه الناس لحضورهم، على أية حال. وظللت على هذا الظن-ظن ان الكلاب هي الصالحة، والحرامية هم الطالحون-، إلى ان قرأت، (اللص والكلاب) لنجيب محفوظ، وتأثرت بها كثيرًا، وحسبت انها أتت بالقول الفصل حول (جدلية اللص والكلب)، ففي الرواية، كان اللص-الثائر، وفاعل الخير-، هو من يطارد الكلاب، وكانت الاخيرة، هي الـbad guys.

ثم أدركت - مع تقدم السن، ربما-، ان اللصوصية و(الكلوبية)، ليست جدلية، إذ قد يتحالف اللصوص والكلاب، ولكن تلك قصة أخرى.

في إحدى تجليات أمي، ذكرت شيئًا بهذا المعني، قالت-فيما قالت- وهي تدرك انها تخاطب، عقل طفل، - ومن كالامهات، يتقن مخاطبة عقول الأطفال؟ - قالت لي-وهي تعلمني، في مناسبات مختلفة-: انت تعرف أنه إذا اختلف اللصان، ظهر المسروق. وتعرف أنه إذا تصارعت الأفيال، تموت الحشائش. وتدرك أن العسكر، إذا خرجوا من الثكنات، أفسدوا الحياة المدنية. وقبل ان يصطفيها الله إلى جواره، قالت - فيما نحن بصدده الآن-: إذا اتفق اللصوص والكلاب، تموت الحياة نفسها.

آسف، سرحت بكم، مع ذكرياتي الخاصة، وهي ذكريات قد تكون - إلى حد ما- متطابقة، مع ذكريات بعضكم، وقد تكون عديمة النفع، لبعض آخر. المهم، كانت لكلبنا العجوز، قصة تروى، من جيل إلى جيل، فكلبنا، عاصر-حتى الآن-ستة من أجيال أسرتنا. وإن كان من المؤكد أنه ليس من

نسل ثالث او رابع، او سابع كلب اهل الكهف، فذاك قد كان كلب واحد، وثبت أنه لم يتزوج، ثم مات مع أصحابه، فلم يترك جروًا صالحاً يدعو له، وهو في غير حاجة لدعاء، كما تعلمون. لكن هنالك اقاويل تنسب لبعض فقهاء (البيطرة الكلبية)، منها انه قد يكون هذا الكلب من أحفاد ذاك الذي إصطحبه سيدنا نوح، في سفينته الشهيرة. هذا الزعم تدعمه رواية أمي، عن جدها، بأن سلالة هذا الكلب المعمر لا توجد إلا في نواحي تركيا.

منزل اسرتنا كان كبيرًا-الحمد لله الكبير- كان(آباء الأسرة المؤسسون) قد امتلكوه، كحيازة، لكن عندما قامت الحكومة بتوزيع المساكن، على الناس، أقرت هذه الحيازة، ولم تتدخل فيما قرر أهلنا، أنه ملك لنا، رغم اعتراضات خافتة لبعض الجيران، وجود هذه الاعتراضات-بالذات-، هو ما دفع "جدودنا زمان"، لإقتناء الكلب، وكان هذا دفاعهم عن هذا الكائن البغيض، في وجه نساء الاسرة اللائي كن لا يرين سببًا لوجوده بينهن. قالوا لهن ان الكلب، سيمنع كل من تسول له نفسه، تغيير ملكية حيازتنا، او يحاول ان يمدد بيته، مقتطعًا جزءًا - ولو يسير- من أرضنا. سكتن على مضض. والحق أن الكلب قد قام بهذا الدور-لحين من الدهر-على أكمل وجه، (بالجعجعة الجوفاء، والقعقعة الشديدة)، لم يحتج ان "يخربش"، أحدا، ناهيك عن عضه.

وبمناسبة العض، فإن كلبنا قد استخدمه، كسلاح، ثلاث مرات، متباعدة، وللمفارقة، كان "المعضوضون"، في جميعها، من افراد الاسرة، في أجيالها المختلفة، الأسرة التي تكرمه وتطعمه، وتأخذه إلي الطبيب البيطري، وتعفيه من مهام "سهر الليالي"، إذا ألمت به "نزلة خفيفة"، أو أصابه إسهال، من فرط أكل اللحوم الدسمة..

ورغم ذلك ظل رجال الاسرة متمسكين ببقاء الكلب في المنزل، مقنعين أنفسهم-والعائلة- بأن إثمه أقل من نفعه ولو كره المتربصون.

ذات مرة إكتشفنا أشياء غريبة يحدثها كلبنا، وظلت غائبة عن كل افراد الأسرة، لاحظت الرضية بت ام ريد -وهي بنت خالي بالمناسبة- وجود بيض لدجاج، وبضعة "سواسيو"، داخل منزلنا، فوجئت، لأننا لم نكن "نسعى" هذا الصنف من المخلوقات، كنا "نربى" - فقط-بعض القطط، لاصطياد الفئران. لذلك استغربت الرضية، أيما استغراب، وتساءلت، في سرها، كيف

غفل كلبنا عن الدجاج وتركه، (يستبيح بيتنا، ويهتك حرماتنا)؟؟ وعزت ذلك لإيغال الكلب في العمر، وفقدان حساسية الحواس، من شم وسمع، عنده، لكنها عندما اقتفت أثر الدجاج الذي باض وافرخ، في نواحي المنزل، وجدت فتحة في الشوك، الذي يسور بيتنا من هذه الناحية وحدها، فأزالت بعض الأغصان، لتكتشف ان السور كله قد تمت قهقرته، إلى داخل بيتنا مما يدل على ان مساحة من البيت قد وضعت يد عليها، وتمت سرقتها، غير ان المفاجأة الاكبر كانت وجود بعض من براز كلبنا (الما بيغباها)، واستدلت بذلك على ان الكلب كان يعلم بما يدور في هذه الناحية، وترك الدجاج الغريب يصول ويجول عندنا، وذلك -ربما-لأمر في نفس "كلبون".

بعد هذه القصة، ليس بكثير وقت، حدث-من كلبنا- شيء، أذهلني، فقد رأيته يدخل المنزل، وفي فمه، علبة حليب "كابو" الورقية، ويسرع إلى الناحية التي تقيم فيها القطط، من المنزل، ثم يقوم بـ"بعج" العلبة، لتتحلق القطط حول اللبن المسكوب، تاركة للكلب، بقايا فار ميت، وعصفورين اصطادتهما. كانت هذه صدمة ساحقة بالنسبة لي، (أو تسرق، وتعمل بزنس كمان، يا كلبنا، يا أخا العرب؟؟)

ثالثة الاثافي كانت القصة المشهورة، والتي تعرفونها جميعكم، او على الأقل، من هم من جيلنا، والجيلين حواليه، إذن فقد آن الاوان ان أخبركم، أن كلبنا-صاحب هذه القصة- هو، نفسه، كلب عبدالجليل، وعبدالجليل هو جدي الرابع، الذي اقتنى هذا الكلب-وقيل أن الحكومة، أعطته، إياه-لكن قصته، مع الطفل، حدثت، مع جيل آخر من أفراد عائلتي الممتدة، لا تصدقوا ما قاله لكم محترفو تزوير التاريخ، بان الكلب قد قتل الضبع، الذي حاول افتراس الطفل، وقام على حمايته، حتى عاد ابوه "عبدالجليل" وقتل الكلب، بعد أن رأى بركة من الدماء ولم ير إبنه.... بلا... بلا.. بلا... اقول لكم، إن ذلك، كذب، و زور، وتلفيق.. الحقيقة هي: ان الطفل كان جميلًا، جدا، ولطيفًا جدًا، بسّامًا، ضحّاكًا، وكثير الغناء، والرقص، ولولا خوف ان "يزندقني"، وكلاء الله، في أرضه، لقلت إنه كاد، ان يكلم الناس، في المهد صبيا.. لكن الكلب أبغضه، ففتح الطريق أمام الضبع، ثم أكلا الطفل معًا، وتركا باحة البيت كأنها (فولاية كبيرة) مليانة دم.

--تمت--

كورونا وحر ولا كهرباء

-ياخي جِنِس حر.

قلتها بزعل، وأنا أزيح الغطاء عن جسدي المتعرق، مستدركًا، أنني-للتو- إنما حدثت نفسي، لكن ذلك لم يثنني عن مواصلة هذا، المنولوج:

- الكهربة قطعت. طبعًا. الله يقطع إضنين عوض الجاز ومعتز موسى وحميدتي وحمدوك. اوووه.

انزلت يدي إلى الارض تحت السرير، باحثًا عن علبة "برنجي"، أعلم أن بها سجارة يتيمة، وعلبة كبريت، بها قشتان. أشعلت سجارتي ورحت أنفث الدخان وانظر إليه فلا أراه، كأن الحر يذيبه فيتحول إلى عرق، يبلل "عرَّاقيَّ" المهترئ.

تذكرت أن نوافذ غرفتي الصغيرة، كانت مغلقة، وأنني نمت تحت المروحة بكامل ملابسي، لكنني صحوت - الان- وأنا بـ"السروال" و "العرَّاقي" فقط، ونوافذ الغرفة، جميعها مفتوحة. عدت أحاور نفسي:

-بسم الله الرحمن الرحيم.

-الأوضة دي "مسكونة".

-مسكون راسك ده.

أحسست بلسع السيجارة بين أصبعي يدي اليمنى، رغم ذلك أصررت على "شفط" آخر أنفاسها، خطر لي أني وهبتها "قبلة الموت"، لا الحياة، ثم ألقيتها بعيدًا، وفي لمح البصر أعدت رأسي إلى المخدة ونظرت إلى السقف(فقد اعتادت عيناي الظلام)، ابتسمت وأنا أرى "الحياة الكهربية"، تدب في أوصال المروحة فتعود ريشاتها للدوران، محدثة صوتًا كحفيف أجنحة طائر، كبيير، ركَّ، برك، فتسلقته، وطار بي سريعًا، وعندما طوقت عنقه بيدي، وجدت أنه خفاش عملاق، وليس طائرًا أسطوريًا، كما هيئ لي أول الأمر، ارتعت للأمرين-بطبيعة الحال-، لكن لم يكن بيدي شيء غير التشبث، برقبة هذا المخلوق، العجيب، الذي هو-وعلى هذا العلو الشاهق- الخصم والحكم.

غذَّ الخفاش الجسيم، الطيران في الفضاء، واستسلمت لقدري، أو قل: ألمت بي-أخييرًا- راحة اليأس، وتمنيت-ولعلكم تعجبون- أن لو كان معي جهاز موبايلي، ال"ربيكا"، إذن لهاتفتها، وإخبرتها بأني انعتقت من وطأة الخيبات، والاخفاقات، والجهاد الذي ما ان اثمر، سقوطًا داويا للزواحف، حتى تهددته-بالضياع-، ميوعة "الأفندية الجدد"، ولأخبرتها-أيضا-، بأن راحة اليأس، هذه، لا تعني-أبدأ-بأني يائس من حبها لي، وإلا لألقيت بنفسي َمن على ظهر هذا الخفاش/التنين، وسقطت "بخخخ" فوق جبل من جبال النوبة أو الانقسنا، أو جبل مرة، وتناثر دمي بين العاشقات/الكنداكات..

ــــعايز تقع تنتحر؟؟ هههههههه-

افلتت إحدى يدي من عنق الخفاش-رعبًا-وكدت أهوى من حالق، لكني حاولت بلع ريقي-الذي جف-فابتلعت، صوتًا، لا لعابًا، واسطعت-بأعجوبة-ان اتدبر القول:

ــــــياخي ده صوتك انت، يا خفاش؟؟

--أمال صوت منو؟؟ شايف ليك مخلوق غيرنا؟؟

--ياخي انت إنس ولا جان؟؟

-- لا هذا، ولا ذاك، أنا "أبو الرقيع"، ههه ههه، مش بتقولوا لينا كده؟؟

تجاهلت المرارة، التي قطرت من صوته، وقلت- وصوتي لم تفارقه الرعشة-:

--طيب، حصل ليك شنو؟؟

--تتذكر #كورونا؟؟

--يا إله السماوات... بالحيل.

--مش انتوا قلتوا، هرب بيها من المعمل واحد مننا؟؟

--أيوة، ديل الخواجات، ما نحن.

--المهم، من بني جنسك، #كورونا اشتغلت فيكم، وفينا، انتوا اشتغلت في جهازكم التنفسي، وقرضتكم، (قرضة غنم رحمة)، ونحن اشتغلت في أدمغتنا، ونقلت لينا سرعة وطريقة تكاثرها وتحورها، وأحدثت فينا من

الطفرات الجينية، ما جعل لنا أعين نبصر بها، ونقرأ بها أفكاركم، فتفوقنا عليكم، وتسيدنا الأرض.

والتفت إلى، بعينين واسعتين، رائقتين، كعيني الصيدلانية التي أدَّبت العسس، عندما تحرشوا بها، آخر أيام "الطفابيع" في السودان، لكني رأيت - في قاع عينيه- الجحيم.

وحين ألجمني الذهول، ولم أنبس، ببنت-ولا ولد- شفة، قال:

--ألا تريد أن تعرف ما حل ببني البشر؟؟

--أريد.

قال-بصوت فيه رنة فرح ظاهرة-

--أبدناكم، إبادة كاملة، كورونا، ثم نحن، سادة الأرض الجدد. جزاء استهتاركم بنا.

--ولماذا أنا حي؟؟

--خليناك-شوية-لأنك كنت الحكيم بينهم، ونشهد أنك - قبل أن تسكر وتنام عشرين سنة-قلت لهم :(لو تعلمون ما أعلم، لسكرتم كثيرًا، وصحوتم قليلًا، أيها الأغبياء)، والان الحق بهم، و"افطس" مع بني جنسك التعيس.

وبحركة غادرة، انقلب الخفاش العملاق في الهواء وازاح يدي عن عنقه، فهويت،

وهويت،

وهويت

وأنا أضرب بقدمي ويدي الهواء،

إلى أن...

طاااخ..

اصطدمت بالأرض،

صرخت، وفتحت عيني، فوجدتني، على الأرض، جارًّا "ملايتي" من السرير، وضوء النهار يغمر الغرفة، والمروحة تدور في السقف، ولريشاتها صرير.

--تمت--

قصة نهايتا لسه

-أخرج يا شيطان.

-أخرج يا عدو الله.

كان الصوت يأتيه من بعيد، وهو غارق، في الثلج، -إلا راسه، المعصوب العينين، بـ"عمة" بالية، يشتم منها رائحة الزيت الذي دهن به شعره، (أدرك حينها، أي زيت تافه كان يستخدم) أسنانه تصطك، وأصابعه العشرين، الموخوزة بالإبر، تحاول النزف، فيمنعها تقلص اوعيته الدموية بفعل التجمد، فتنكفيء على جسده، تؤلمه، ويصعوبة بالغة-وكما يصعد (بتشديد الصاد والعين.) إلى السماء-، تخرج انفاسه، رفع رأسه، ليخرج صدرًا، ضيقًا، حرجًا-في تلك اللحظات- من الماء المثلج، أملًا، في دفء، بدأ له بعيد المنال، ورغبة في إدخال مزيدا من "هواء الله والرسول ده"، إلى رئتيه، المتجمدتين، ولا شك.

- خلاص، امرقوه.

مازال الصوت بعيدا، ربما بفعل مروره عبر الماء الذي امتلأت به أذناه.

أمسك به، رجلان، كل من يد، وأخرجاه من حوض الثلج الذي كان مغمورا فيه، مثل سمكة ميتة، حاول أن يتملص منهما ليحرر إحدى يديه، فينزع "العمة" التي تعصب عينيه، نافية إياه من عالم المبصرين، لكن كلا الرجلين كان، أقوى من الآخر، وكان أحدهما كبير الحلقوم - تخيله بلا مؤهلات أخرى، كالتوم هجو- هذا الـ(أحدهما)، صاح به:

- أصبر.

همهم: الصبر حيلة العاجز.

وتوقف عن المحاولة.

-رقدوه في المرتبة دي.

مدداه على جسم، اقتنع أنه مرتبة لأن صوتا قال ذلك، لكنه-في الحقيقة-- لم يكن يشعر بشيء على الإطلاق، خدر - غير لذيذ-، غمر جسده بالكامل،

ثم اجتاحته نوبة ارتجاف من البرد، موسيقاها التصويرية صوت اصطكاك أسنانه، التي ظن انها تتساقط جراء طحنها بعضها بعضا.

-جيبوا الملح.

شعر بمسحوق خشن، عرف ان الاحساس بدأ يعود إلى جسده، غطوه تمامًا، بالملح، شعر بالدفء يدب في أطرافه، وشيئًا، فشيئًا، يغمره كله، خالجه شعور بالامتنان تجاه "الشيخ"، طرده بسرعة، لاعنا-في سره- "استوكهولم"، ومتلازمتها. سرح، بذهنه، تذكر ليالي بيوت الأشباح، وذكرى صديقه الأثير، "منتصر"، الذي فقد إحدى ساقيه، جراء حفلة تعذيب، تشبه (جلسة العلاج) هذه لحد كبير، ابتسم للمفارقة، ولاحت له الخطوط العريضة، لنظرية جديدة-وهو "منظراتي"، كبير، كما يقول أصدقاؤه-، لكن "الشيخ" قاطع انسياب أفكاره بالقول:

- جيبوا البخور.

أحس بهم يغطونه، إذ زادت ظلمة العمى المفتعل، ظلمة، واشتم رائحة دخان غريب، وعكس ما كان يرغب حينها، أماطوا اللثام عن عينيه، فآذاهما الدخان، كما آذى أنفه، وكاد يحرقه، إذ جعلوه على بعد بضع مليميترات، أمام وجهه... ما كان له أن يحتمل هذا الجو، الجهنمي، لولا طيف امه، و(يا عين يا عنية، محمد رسول الله، قال ليك، اخرجي، موسى كليم الله، قال ليك، اخرجي..).. آااه.

-أشرب.

نظر من خلال الدخان، ظانًا أن أحدهم يقدم له مشروبا، فلم ير غير مزيد من الدخان، وجمرات - في"مبخر"-، تتوهج،

-اشرب شنو؟؟

- اشرب الدخان.

(تشرب الشربتو حبوبتي.)

-قول استنشق ياخي.

-قلت ليك أشرب الدخان.

"جر" نفسًا عميقًا، ـ بأنفه، وفمه-عامدًا، لتتفجر نوبة سعال، خشن، مزعج، لعل (الشيخ)، "يحن على حالو"، ويعفيه من رائحة، ما لا يدري، الكريهة، هذه. لكن الأخير، كان مثل ضابط أمن إنقاذي، لا يشعر بالشفقة، بل ربما الاستمتاع والتشفي، كما خيل إليه من نبرة أوامر الرجل:

-أشرب تاني.

"شرب" تاني، وتالت، ورابع. لم يعد يحتاج للصوت النحاسي حتى يحرق-في يأس-أنفه، وحلقه، ورئتيه. خطر له، أن كمية الدخان التي استنشقها في هذه الدقائق المعدودة، ربما تفوق كمية دخان "باكو برنجي"...

- كفاية.

انزاح "المبخر" من أمامه، وارتفعت البطانية وتمكن-أخيييرًا- من استنشاق هواء، شبه طبيعي، تلفت حواليه، فرأى (الشيخ)-هذه المرة-، قبيحًا، قذر اللحية، وربما "مقمل"، (كما قال القذافي)، ومعه "كادرا العنف" الذين نفذا، "أوامر التعذيب"..

لا شعوريًا، نطق بصوت مسموع، مبحوح، بفعل الدخان:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

- بل قل: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، أولًا.

رددها باستسلام.

-شوف يا الجيلي، يا ولدي.....

تذكر فجأة، ويا للدهشة، لماذا هو هنا الان،.. (قالوا لي: انساهو، وامسح من خيالك-ذكرياتو)، وتذكر أن أباه، ينتظر ـ خارج الغرفة- ما تتمخض عنه، مهزلة طقوس "عبدة الشيطان"، هذه، مؤملًا في شفاء ابنه الوحيد.

-انت معاي يا الجيلي؟

-آاأي يا شيخ.

لكنه لم يكن معه،.. ليتها قالت، انه، ليس ندا، لها، وان جمعتهما "مجانية التعليم"، ليتها قالت، أن جده، حارب ـ مع الخليفة التعايشي-، أجدادها، أو

أنها تنحدر من نسل فرعون، الذي، نزع كبيرنا، "بعانخي"، ملكه، لذلك فإن، أهلها يرفضون زواجه، بها.. ليتها قالت، أن تيار حبه الجارف-كما كان يحلو لها، وبها أن تقول- قد توقف عن السريان، في شرايينها،... ليتها، وليتها.. وليت.. و

(ليت، لي يا عازة--جناح أحاكي الطير

كنت اسكن حيك--ولي حماكي أطير.)

جاءه صوت (الشيخ) مهمهمًا، بآيات قرءانية، (يعلِّمون الناس السحر، وما أنزل على الملكين، ببابل، هاروت، وماروت،.... وما هم بضارِّين به من أحد إلا بإذن الله...) ثم أدعية، مسجوعة، يغلب عليها التعوذ، بالله من شرور كثيرة، منها الحسد والعين، والنساء-طبعا-، وما تتلو الشياطين على مملكة بابل.

ليتها، قالت، ما يعزو إليه الشيخ الأمور، لكنها، باغتته، وقالت-ببساطة-:

- يا "جيلون"، نحن ما بننفع لبعض.

لم يرد، واكتفى-زي العبيط- بالبحلقة.

-انت بتاع تفاصيل، وانا-طول عمري- بحب العموميات... اعتبر البيناتنا، انتهت.

لم تمهله، حتى (يقطع دراعه)، لأنه (ما فهمش حاجة)، تركته فاغراً فاهُ، وقامت، حاملة شنطة يدها، وسارت، مبتعدة،- ومثل جين موريس- تضع ثقل جسمها، على قدمها اليمني، فيميل كفلها إلى اليسار..

ضبطه، أبوه، سكرانا، مرة، ومسطولا، مرات، و "مبلبعًا"، دائمًا.

-الجيلي.

-أيوة.

-خلاص، خلصنا، بس قول وراي:

اتوب إليك يارب التوابين، فأقبلني، وتب علي. تلاتة مرات.

رددها، ثلاثًا-بآلية-. تهلل وجه الشيخ، ومسح على لحيته، ثم على رأس الجيلي، وانطلق إلى خارج الغرفة، ليزف بشرى الشفاء، لأبيه المحترق انتظارا..

لم يتركه الشيخ وحيدًا، فقد داهمه "المجنون"، هامسًا:

(أما عن هوى ليلي، فإني، لا اتوب)..

--تمت--

أهازيج

إنها حب حياتي، "أهازيج"، إبنتي الوحيدة، ليس لأنني عجزت-او عجزت أمها-عن الإنجاب، ولكن - ببساطة- لأنني هربت من ذلك الملل، الذي يسمونه "الحياة الزوجية"، -وإن كان مللي أنا شخصيًا، قد أتى لأسباب أخرى-، هربت بمعنى هربت، I ran away. إلى أين؟؟ هذا ما سأسرده على "أهازيج " الآن، وأنا على فراش الموت...

الموت، ذلك البعبع المخيف، الذي جريت منه ما استطعت، ولكن لا مهرب،

(وهل يأبق الإنسان من ملك ربه؟؟

فيخرج من أرضٍ له وسماءُ؟؟)،

ما أظن يا المعري.

وعلى ذكر أبي العلاء، كنت -وما زلت- من المؤمنين، بحكمته التاريخية:(هذا ما جناهُ، أبي، عليَّ، وما جنيته على أحد)، لكنني جنيته على "أهازيج"، تفاحة القلب، المحبوبة رغم إنكارها لي...

كم أرِّق لياليَّ، إنها لم تعش سعيدة، فكانت، بلا أب، رغم محاولات رجال اسرتنا الممتدة، لتعويضها غيابي، او-بالأحرى-هروبي الحزين، ثم - مؤخراً- تطلقت بعد عام من زواجٍ لم يكن حافلاً بالحب، وطبعا، لا أب تبسم في عرسها، وما عادت إليه حين الزوج أغضبها. لم تنجب خلال زواجها أحدًا، وهذه محمدة عندي، ومنقصة عند مجتمعنا التافه، ومنغصة لها، إذ يعني ذلك ألا أحد سيهتم بها عندما يدهمها خريف العمر وشتاؤه، -وكفِّها في شتا الأيام-، لن تضم كف أحدٍ لتدفئها، لن تظفر "أهازيج" - تفاحة القلب، المحبوبة- رغم إنكارها لي- بشيءٍ من هذا، وعليها أن تقاسي مع أمها، زوجتي السابقة، - وحيحي ووجع قلبي-، شتاء عمرٍ، قاسٍ، قاحل، وموحش.

عزيزتي، روح روحي: أهازيج،

لعلك تعجبين أنني أباك، وأنني أكتب إليك الآن، بعد أربعين عاماً قضيتها هارباً منك-كما تظنين- وكما أبلغني من جاءوا من طرفك، وهم قالوا كثيرًا،

ووفيراً، (قالوا في تيهك، تحيا هاني سعيد، زي كأني معاك، ما كأني بعيد)، لكني كنت أعلم انهم يكذبون، او لا يعرفون. كنت أعرف أنك "تتطقسين" أخباري، كما "أتطقس" أخبارك، كنتِ تميلين لتصديق، الحقيقة الخالدة، - وربما الوحيدة - في حياتي، وهي أني أحبك، لكنكِ -أبداً- لم تجدي جواباً، لسؤالكِ الحائر، (إذن، لماذا تركتكم؟؟)

ليس لانكم سيئون، لا انت، ولا أمك، وليس لأني اهرب من المسؤوليات - كما يقول المرجفون في القرية- رغم أني اقرُّ، بأنهم ربما كانوا محقين. هربت من الضياع إلى الضياع، جُبتُ بحاراً، وبحاراً، وكبر حزني حتى أصبح أشجارا، ولكن ليس لأسباب نزار قباني، ذاك ترفٌ في حالتي.

الغالبية-يا أهازيج- عزوا هروبي إلى أنني احسست بالفارق التعليمي بيني وبين أمك، لكن ذلك - وإن كان حقيقة باردة- ليس هو السبب، فالتعليم ليس ميزة إنسانية، -وإن يكن ميزة حياتية-أم ترينني أتفلسف؟ "واشقاي" إذن....

ما أردت قوله، هو ان الفارق التعليمي لا يعني شيئاً في الحب، ومن ثمَّ، الزواج. تلك مسائل إنسانية، عاطفية، وجدانية. عشق شخص لا يتطلب البحث في شهاداته، ومؤهلاته، فزوج وزوجة، ليست وظائف حكومية، وإنما هي شراكة إنسانية، المهم ان ذلك لم يكن سبب هروبي، صحيح أن هروبي كان من والدتك- ولم يكن منك انت يا وجدان وجداني-لكنه لم يكن للأسباب التي قالوا.

قابلت النَّيَّل ود فضل السيد في ليبيا، اتصل بكم وقال إنه بصدد إقناعي بالعودة إليكم، الحق إنه أقنعني، ولكن لدقائق معدودة، عدت بعدها لخلوتي فوجدت ان أسبابه واهية، ربما كانت أسبابي-أنا- الواهية، لكنني تمسكت بها ولم أعُد.

ومرة قابلت كلتوم بت الطيب في الحرم المدني، كنتُ "مبلّمًا" أغطي وجهي بالشماغ السعودي، وعينَيَّ بنظارة سوداء، كالتي يلبسها "المساطيل"، أو عمال الحِدادة، و"اللحام".. تحدثت إليها، فعرِفت اللهجة- وإن لم تعرفني- سألتها عنكما - أمك، وأنتِ- بعد ان طفت بها- بالأسئلة-، حول الحي والجيران، قال لي النَيَّل إنها لم تعرفني إلا وهي تحكي

عني في البلد، عن الشخص الذي سألها -دون ان تعرفه أو يعرِّفها بنفسه- عن فلان وعلانة، وقالت إن هذا الشخص لابد أن يكون أنا..

َوعندما مرض ابي، ذلك المرض الذي لم يشف منه، وأودي بحياته، زرته "متبلماً" ايضاً، هذه المرة، بعمامة، حدثته همسا، وحدثني كذلك، طلبت عفوه، فلم يبخل به، ذلك انه كان يعلم.

ربما قالوا لك - يا أهازيج، إبنتي- إنني كنت "سفيهًا"، أراسل المعلمات في القرية وأهديهن الهدايا، وأغازلهن شعرًا، وربما قالوا لك، أنني لم أكن أحفل بأمك ولم أكن أحبها، اما أنني لم أكن أحبها، فهذا صحيح، وأما ما عداهُ، فمجرد شائعات، (كلام الما بدورك، الفي الضلمة يحدر ليك).. أمك كانت- وربما لم تزل- جميلة، مقبلةً، ومدبرة، لكني لم أرَ ذلك، هو أخبرني، كان يحبها وتحبه، (ويحب ناقتها، بعيره،) كان أخي وصديقي الأثير، الحسن ود بانقا، طبعًا لم ترينه لأنه توفي قبل كل شيء في حياتك، شقيقي الأكبر، توفي بالملاريا أو التايفويد او السل أو الجدري أو الكوليرا، -لا يهم-، كما يموت الناس في بلادي، المهم أنه رحل، وخلف حزنًا، يأبى أن يرحل.

قال أبي: كنت اتفقت مع عمك ان يتزوج الحسن -أخوك- إبنته، وقد حدث أمر الله، فيجب أن تتزوجها انت. قلت: لكن يا ابوي.....

قال: مافي (لكن).

وتجادلنا طويلاً، او قليلاً....،

قال: ما تسوِّد وشِّي قدام أخوي.

قلت: حاضر يا أبوي...

تزوجت أمك، أجبروها كما أجبروني، فرضخت كما رضختُ، في الليلة الأولي استعنت بالمقويات وبعض خمر، وكنتِ أنت الثمرة، وبعدها لم أستطع، وهربت، فاعذريني يا "أهازيج" حياتي.

ليتني أحيا، فقط حتى أعلم أن ردك على رسالتي هذه، هو غفرانك لي، والترحم على روحي المعذَّبة.

أبوك........

--تمت--

قصة هندية مترجمة*

ولدت وترعرعت ودخلت المدرسة في قرية في ولاية "حيدرأباد"، درست الهندسة في جامعة "مدراس"، بولاية "تاميل نادو". لم أكن خلال دراستي الجامعية طالبًا متفوقًا، لكنني كنت أجيد إحراز الدرجات التي تؤهلني للإنتقال للصف التالي، لذلك، تخرجت في زمن وجيز نسبيًا، وبالكاد وجدت وظيفة في ولاية مجاورة، لكنها لم تكن كافية لتقيم أودى، ناهيك عن مساعدة أسرتي التي تشتمل على ثلاث من البنات ولم ينعم الله على أبويَّ، بذكر غيري، مما يعني أنه يتوجب على توفير مهور (دوري dowry) شقيقاتي، إن أردنا لهنَّ زواجا.

باختصار-أرجو ألا يكون مخلًا- لم يكن عملي يوفر دخلًا، يفي بكل متطلبات أسرتي الكبيرة، وتكوين أسرتي الصغيرة، فيما بعد، فكان لا بد من التفكير في البحث عن حظ أوفر، ودخل أكثر، خارج الهند. بكت أمي، ولف الحزن، فالإكتئاب، أبي، لكن لم يكن هنالك بد من الرحيل، ولا مهرب من الإغتراب.

حزمت حقائبي وسافرت الى إحدى الدول البترولية العربية الخليجية، ونجحت في العمل مع إحدى الشركات، وكسبت مالًا وفيرًا حقق معظم-إن لم يكن، كل-آمالي. فقط لم اتزوج، وأنا قد ذرَّفت على الخمسين، لكن عندي من المال، ما يجعل تحقيق هذا الحلم، سهلًا، ميسورا، خاصة مع تفشى العنوسة التي ضربت أرجاء الهند وربما كل العالم.

المهم انني عدت أحمل-فيما أحمل- قرارًا بالبقاء والعمل في الوطن، فرحت به أسرتي، التي تضخمت - بانضمام أنسبائي، وقدوم أطفال أخواتي- كثيرًا، وصار شغلهم الشاغل، تزويجي-أنا-من الفتاة التي تستحقني-على حد تعبيراتهم-. طمأنتهم بأنني سأتزوج، وعاجلًا، غير أن عبء اختيار زوجتي، يقع عليَّ، أنا، دون سوأى، وليس عليهم، -كما جرت عاداتنا-. وافقوا على مضض، بشرط أن أنجز ذلك خلال أشهر لا تزيد عن الستة.. هنا، أرجو أن أنبهكم -يا سادتي- بأن القصة -التي من أجلها كتبت-، لم تبدأ بعد....

بدأت القصة عندما، دخلت في شراكة عمل مع صديق تعرفت عليه، في الغربة، ونحن -في الهند- نقول: صديق الغربة، معدنه نفيس. كان هذا

الصديق قد تعاقد مع وزارة الاشغال -في ولاية "البنجاب"- على ترميم بعض المستشفيات وصيانة أجهزتها الطبية (العمل الذي أتقنته في بلاد الغربة). لا أطيل عليكم، ذات يوم وأنا مشغول بصيانة أحد الأجهزة في إحدى المستشفيات، رأيتها، يا إله السماوات... كانت ترتدي السارية الهندي، سمراء في لون العسل، عيناها سوداوان، ذكيتان، و(حاجبًا حارسِن سفاح)، كما غنى النعام آدم، في بياضهما احمرار خفيف، هل من غضب؟؟ أم من علة؟؟(عرفت -فيما بعد- انها تعاني من "الرمد الربيعي"، فلعنت "الرمد" و"الربيع"، معًا). لكن ذلك حدث لاحقًا، فالحق انني، لم أحفل بها كثيرًا في ذلك الوقت، إلا بقدر ما جعلني أسأل: -

- من هذه.؟؟

- طبيبة..

- ولماذا ترتدى السارية؟؟

- أطباء الأطفال لا يلبسون البالطو، لأنه "يرعب" مرضاهم.

بعد ذلك تعددت لقاءاتي بالدكتورة(ليساما)، وكان هذا إسمها. شعر كلانا بإلفة سريعة نحو الآخر. كنت عندما أنهي بعض عمل، أمنح نفسي استراحة، فأذهب إليها في مكتبها، ولو لم تكن منشغلة، فهي ترحب بي، وتطلب لي الشاي والفطائر، وبعض الحلوى. وعندما تعمقت علاقتنا أكثر، غمرتني بكرمها الفياض وعديد الهدايا.

تحادثنا كثيرًا، في الواقع كنت-أنا- المتحدث في غالب الوقت، وكانت هي مستمعة جيدة، من أحاديثنا تلك، عرفت انها ما تزال-بعد- عازبة، رغم انها شارفت على الأربعين، هي-بالإضافة لجمالها، ومركزها- من أسرة ميسورة لذا فقد سعى كثيرون للاقتران بها، لكنها كانت ترفضهم لأسباب تعرفها هي، وربما لا تقنع أحدًا غيرها، كانت- ولعلكم تعجبون-ليست متعجلة للزواج، ولا تمانع في العيش، بلا زوج، طوال العمر...،

أرجو ألا يتبادر إلى أذهانكم -سيداتي، وسادتي- أنها تعيش حياة، منطلقة، صاخبة، لا، فقد كانت على العكس من ذلك، تميل الى المحافظة، تكرس أغلب وقتها لمرضاها، في المستشفى، وتزور الكثيرين منهم في

منازلهم، كما يزورونها للعلاج أو المجاملة في بيتها الذي تتقاسمه مع أمها، فقط.

مرة، بينما نسمر- هي وأنا- في أجواء بالغة الودية-، رن هاتفها، وعندما شرعت في الرد، اكتسى وجهها بجدية، معروفة عنها، ثم زمَّت شفتيها الكاكاويتين-مخفية أسنانًا، نضيدة، ناصعة البياض، لطالما شغفت بهما نظرًا- وقالت باقتضاب:

- أنا جاياكم هسَّه.

وضعت هاتفها السيار أمامي على المنضدة ونظرت في عينَيَّ بتركيز، وقالت:

- لو اتصلوا تاني قول ليهم: ما تتحركوا، أنا في الطريق.

خرجت وهي تعدو، نظرت إليها خارجة، جارية، فهالني-رغم الظرف الطارئ- ضمور خصرها، النحيل جدًا، وترجرج كفلها، في لوحة جمالية متناسقة، وبديعة.

لعنت "بهيميتي" وانطلقت خلفها لا ألوى على شيء. كانت تجرى في خفة الغزال، وعندما وصلت انا الى بوابة المستشفى الخارجية، ألهث، كانت -هي- قد وصلت الشارع الرئيس، وفى لمح البصر ظهرت دراجة بخارية يقودها شاب، أبطأ من سرعتها، فقفزت إليها "ليساما" ، أمسكت بكتفيّ الشاب، وخيل الى انها همست في أذنه ببضع كلمات، انطلق على إثرها بسرعة خاطفة، تمامًا كما يحدث في أفلامنا السينمائية.

عندما عادت، بعد حوالي ساعة، ونصف، -كنت أنتظرها خلالهما-، كانت هادئة، كعادتها، رفعتُ إليها حاجبين متسائلين، لم تحفل بهما، ولكنها جلست وأخذت هاتفها من أمامي، ثم تنهدت وقالت:

- طفل اختنق(choked) في البيت، وأهله لا يعرفون كيف يسعفون مثل هذه الحالات، وليس لديهم لا عربية ولا موتر، ليحضروا الطفل سريعًا، وأنا -كما تعلم- لا أقود السيارات، وأنت لم تأت إلى هنا راجلًا إلا اليوم، فكان لابد من الجري.. (ضحكت)،المهم إنني أنقذته، شكرًا للرب.

حمدت الله-بدوري- وصعدت-هي- في نظري، إلى مراقٍ عُلا. غير أني- كرجل شرقي الثقافة، يغار من سن المراهقة إلى اللحد- قلت، بلهجة لا تفصح عما تمور به الدواخل:

- ومن الشاب الذي كنت "تلتصقين" به في الدراجة وكيف عرف أنك هناك؟؟-

ابتسمت برقة، -قافزة فوق الحمولة "التجريمية" لكلمة (تلتصقين)، وقالت -برقة-:

- أظنه ملاك، أرسلته السماء، لإنقاذ الطفل. ثم أردفت:

- للإله طرقه التي لا نفهمها.

وجدتها إنسانة بمعنى الكلمة، تهتم بالناس، أيًا كانوا، صغارًا أو كبارًا، رجالًا ونساء، تنسي نفسها في خدمتهم ومساعدتهم، لا تريد منهم جزاءً ولا شكورًا.

وطبعًا نالني الكثير من معاملاتها الانسانية الرائعة والراقية، تحضر لي قهوتي من بيتها، بعد ان تصنعها بيديها الرقيقتين، تهدى لي أشياء صغيرة أحتاجها، كأدوات الحلاقة، أو الجوارب، وعندما جاء الشتاء، أهدتني معطفا جميلا أنيقا، ليقيني البرد والمطر. مرة قلت لها- ربما بوحي من تفكيري الرغائبي(my wishful thinking)-:

- أنت لا تعاملينني كصديق أو حتى حبيب، وإنما، كزوج.

رفعت حاجبيها(القاتلين)، دهشة، وقالت:

- بالجد؟؟

- على الأقل هذا ما أريده-أنا- في زوجتي.

استغربت انها لم تعلق، ولا بدت عليها أي علامات فرح. لكن علاقتنا استمرت كما هي-وربما أكثر- على أي حال، وصرنا نتحادث الساعات الطوال، عبر الهاتف والمسنجر، ونتبادل الحوارات والتسجيلات ومقاطع الڤيديو من خلال الواتساب، ولا شك أننا أصبحنا أصدقاء في فيسبوك، وتويتر، أيضًا.

لا يخفى عليكم- والحال هكذا- إنني لم أستطع الصمود كثيرا، وصارحت (ليساما)، بحبي الشديد لها، و رغبتي الأكيدة في الزواج بها، لكنها قالت:

- لا.

هالني، ردها، صدمني، أدهشني، وجدت صعوبة في التماسك، لكنني ظفرت به، بعد لحظات صمت، فهمست:

- ولماذا؟؟

- أأكذب-والنساء يبرعن في الكذب، كما تعلم- أم أقول الحقيقة؟؟

- بل تقولي الحقيقة؟؟

- ولن تغضب؟؟

- كلا.

- أنت مسلم، ونحن نساء الـ....(وذكرت اسم ديانتها الهندية، غير السماوية)، محرم علينا ان نتزوج من المسلمين.***

صعقت، فوجمت،... استرسلت:

- إن كان فيما سأقوله، ما يعزيك، فأعلم أنك أروع رجل قابلته في حياتي- وقد قابلت الكثيرين- وأظن أن أي إمرأة تتمناك، زوجًا لأنك كفيل بإسعادها، أما أنا، فلا أستطيع.

كنت قد تمالكت نفسي، فنظرت إليها وقلت، بهدوء وصدق:

- يالها من تعزية، لكن، ليس لي، أنا.

استأذنت مغادرًا فلم تتكلم، لكنى عندما بلغت الباب، قالت-فيما يشبه الضراعة-:

- ممكن أطلب منك فضل.

- بكل سرور.

- أريدك أن تظل صديقي، كما كنت.

اغتظت، كظمت غيظي، وكبحت رغبة شريرة في إيذائها، -و دينها- بالكلام، فاكتفيت بالقول:

- يا دكتورة، لو أنك تقدمت بطلب لشغل وظيفة "وزير صحة الولاية"، فقبلوك، كخفير فيها، هل كنت توافقين؟؟

أسبلت عينيها وقد زاد احمرارهما الخفيف، احمرارًا، وانطلقت وانا أشعر بأنني خفيف، لا أدرى لماذا شعرت هكذا.

لم أكن غاضبًا، ولم ينجرح كبريائي، ولكن ربما سينجرح كبرياء إمام مسجد قريتنا، الذي أحس تجاهه- ولعلكم تعجبون، مرة أخرى- بنوع من الشماتة، رغم أن الكارثة، قد حطت على رأسي أنا.

--تمت--

*** لا قصة هندية، ولا مترجمة، قطعتها من راسي المدوقس ده.**

**** الحق إنني لا أعرف ديانة غير الاسلام، تمنع نساءها من الزواج من رجال الديانات الأخرى.**

الحلة جاطت، والحريم يتهامسِن

كان اجتماعًا خطيرًا، دعت إليه، نساءُ الحلة، -لأول مرة في تاريخها- رجالَها، لكنهن -بالطبيعة الاجتماعية للقرية- لم يشاركن فيه.

الدعوة كانت لكبار القرية وحكمائها، للبت في أمرٍ، رأته النساء-شقائق الرجال-جللًا، وما هو-في الحقيقة- إلا "شمار"، وصل إليهن، وانتشر بينهن، بطريقة "حريمية" غامضة.

كان على هؤلاء الرجال المجتمعين في ذلك الصالون الكبير، أن يبُتُّوا في أمر زواج حسن ود العشا وزكية بت أب جيبين، بالرغم من أنهما متزوجان منذ مدة، ولهما طفل جميل، لكنها تداعيات ذلك الشمار والتي تطلبت أن يجتمع الكبار، لـ"فتوى" في شأن هذا الزواج، مرة أخرى.

(الشمار كتلكم، صاح؟؟؟)

كانت زكية بت أب جيبين، يتيمة الأبوين. كفلتها-منذ طفولتها - عمتها التي لم يرزقها الله، بذرية، والتي كانت وحيدة، إذ توفى زوجها في نفس حادث المركب الذي غرق فيه، والدا زكية..

هكذا عاشت الطفلة والعمة، وحيدتين، في بيت يتيم-على طرف القرية، لا جيران مباشرين له- ومتواضع، تكلؤهما رحمة الخالق، وبعض الخيرين، من خلقه.... إلى ان تزوجت زكية، بحسن، الحب الأول بحياتها، أو قل؛ حب حياتها...

"الشمار"، هو: أن احدى سيدات القرية -المحترمات طبعًا-، تذكرت أنه يوم أن رُزِقت زكية بطفلها-مكتمل النمو والمختون، خِلقة- تذكرت أن زواج حسن وزكية، لما يكمل -بعد-شهره التاسع.

أسرَّت المرأة بذلك لجارتها، وصديقتها وحبيبة قساها، والتي بدورها، نقلته لجارة، وصديقة، وحبيبة قسا، أخرى. وهكذا-على طريقة، دخلت نملة وأخذت حبة، وخرجت-"تفشى الخبر"، ولكنه ما ذاع ولا عمّ-حتى كتابة هذه السطور-، لا القرى الأخرى، ولا الحضر.

"طقش" الخبر "أضان"، زوجة العمدة، فما كان منها إلا أن "عصرته حااار"، لزوجها، وهو -بالمناسبة- الذي أشار عليها، بأن يصدر قرار أجتماع كبار القرية -للبت في الموضوع- من النساء، في شكل طلب- شفاهي- من سعادته، كعمدة.

قرر كبار القوم استدعاء حسن ود العشا للمثول أمام جمعهم الكريم، وأخذ رأيه -كإجراء شكلي-، ثم أمره بتطليق، زكية (اللي ما تتسمّاش، بقول اولاد الريف).... لكن حسن -الكحيان، الغلبان- صدمهم بالقول، بأنه لن يطلّق، وإن هذا الطفل-وإن بدأ الحمل به قبل زواجه- إلا أنه طفله، وانه-حسن- متمسك بالطفل وأمه، حتى آخر رمق. ولَم يكمل-احترامًا لكبار القرية-بقية ما خطر بباله، ألّا شأن لهم-أو لغيرهم-بذلك.

حكى النايرود حسب الرسول، والذي كان حاضرًا لهذا الاجتماع، بصفة مراقب (كما يحلو له القول)، لكنني أظنه حضره متلصصًا فضوليًا، وأختبأ حيث لم يفطن لوجوده أحد. حكى ان كبار القوم،"إنقهموا، منبهطين"، برد ود العشا. ثم-كقوم كبار- استعادوا رباطة جأشهم، واستجمعوا بنات-وأولاد- أفكارهم، وقدّروا، ثم عبسوا وبسروا، ثم تدبروا الأمر، ولم يستكبروا، ثم قرروا، قرارهم التاريخي، بأن لا شيء يتطلب فتوىً منهم، ويجب ألّا يتدخلنّ أحد، فى شؤون ود العشا العائلية.

(رُفعت الجلسة).

فرح النايرلقرار القوم، وخرج منً فوره، ليجد النساء، في الحوش والشارع، زرافات وواحدات، متحلقات، ومنتشرات. غير بعيد من ذلك الصالون العتيق. تقمص هيئة الناطق الرسمي للبيت الأبيض وقال بصوتٍ عالٍ-ليسمعه الجميع-ولهجةٍ خطابية متكلّفة:

(هوووي يا حريم.. قومن. شوفن ليكن شغلة، أقضنَّها)

تطلّعن إليه، مستفهمات، متلهِّفات... واصل كلامه؛ (مافي حاجة حتتغيَّر... حسن واسرتو حيقعدوا -زي ما كانوا-مع بعض.)

سرت همهمات، وتهيّأت بعض النسوة- أو إدّعين التهيُّؤ- للمغادرة. لكن النايرأردف-باسمًا، بخبث-:

(وبالمناسبة، كلموا باقي ناس الحلّة، والحَلّال المجاورة، الداير يعرس مننا، يكون عارف، أنّو بناتنا ديل، بلدن في تمانية شهور).

تفرق الحشد ما بين (أجي) و(سجمي)

--تمت--

الخفجي-السعودية

سبتمبر2002

طلحة السناري، والخواجات،والخمسة البلهاء*

قشر طلحة ولبس أجمل ما عنده، بنطلون بتاع تيل، رسلو ليهو ود عمو من السعودية، وقميص، أكمام قصيرة، ما عارف قماشو شنو، وأكبر منو مقاسًا، لكن طلحة يحبه. أمه كانت قد نصحته أن يلبس الـ(على الله)، الجديدة، لكنه قال لها إنه لن يلبسها أبدأ وقد أتي بها -فقط- لأنها كانت هدية من شخص عزيز.

المهم، أن طلحة عندما وصل لباب الفندق الفخيم، أعترضه بتاع سيكيوريتي وسيم، وقال له بنصف تهذيب، (فمظهر طلحة الأغبش لم يغر الحارس، بأن يهبه تهذيبًا كاملًا) طلحة لم تكن تهمه مثل هذه الشكليات، بل كان يستمتع بأهل التقييم المظهري هؤلاء، لأنه كان يمارس كامل وقاحته- أمامهم وداخل مبانيهم- فينظر إليهم -باسمًا- من علٍ، ويتبختر في مبانيهم الفخيمة وكأنه وُلِدَ فيها.

بعد أن عرف الحارس أن هذا "الجيعان" هو من ينتظره ضيوف الفندق الخطيرين، سمح له بالدخول، ولم يكلف نفسه عناء مرافقته، بل اكتفي بـ(يمينك، شمالك، قدامك، تلقاهم هناك).

وقف طلحة أمامهم، بثقة وكبرياء "عثمان دقنة"، وجدهم يتحلقون حول طاولة طويلة، تذكر المقرن، إذ أن الخواجات كانوا يجلسون متجاورين، والخمسة البلهاء كذلك. حياهم بهمهمة، فلم يردوا الهمهمة بأحسن منها، ولاحظ طلحة أن البلهاء الخمسة، ابتسموا إبتسامات صفراء، بينما كانت إبتسامات الخواجات،برتقالية.

تحدث خواجة ذو وجه ثعلبي، وقال: مرحب طلخة، ثم أضاف بإنقليزية، ذات لكنة "هتلرية":

-- Do you speak English?

رد طلحة: بالحيل، ثم أردف: **Sure.**

عطس الخواجة، عطسة ديكية، وواصل بالإنقليزية:

-- طبعا بتعرفني وبتعرف الجماعة ديل، (وأشار إلى البلهاء).

-- شايفكم في التلفزيون والجرايد.

-- أما ديل (وأشار إلى الخواجات)، فواحد من امريكا وواحد من النرويج وواحد من إنقلترا..

-- تشرفنا.

-- إنت جيت هنا ليه يا طلخة؟؟

-- جيت هنا ليه؟؟ عشان إنتو طلبتوني، ما عايزين؟ هسه بتخارج، (ووقف علي حيلو)

-- نو نو، أقعد يا طلخة، قصدي، إنت عارف، نحن طلبناك ليه؟؟

-- عارف، قلتو في مشكلة، وعايزين تتوسطوا لحلها.

-- مظبوط، وعندك شنو تقدموا لينا عشان نحل المشكلة؟

-- ما عندي حاجة..

-- كيف الكلام ده، يا طلخة؟؟ ما عندك حاجة، نحن يا خبيبي جايين نتوسط بينكم إنتو السودانيين، ونساعدكم تصلو للحل، ولازم إنت تقدم العندك، وهم (وأشار للبلهاء الخمسة) يقدموا العندهم.

-- إنتو (ونظر إلي الخواجات واحدأ،إثر آخر) شايفين المشكلة شنو؟؟

نظروا لبعضهم بعضًا، وبدأ عليهم الإمتعاض، لكن ذو الوجه الثعلبي كان أول من تماسك وأعاد الهدوء-والبسمة البرتقالية- إلى وجهه، ثم قال:

-- نحن شايفين إنو في أزمة سياسية في البلد وشعبكم منقسم، والجماعة ديل (مشيرًا-مرة أخرى- للبلهاء)، حريصين على أمن واستقرار البلد، ومستعدين، يتوافقوا معاكم علي حل، يحفظ الفترة الإنتقالية، ويؤمن الإنتقال الديموقراطي.

-- أولًا، يا خواجة، يتوافقوا معانا؟؟ نحن منو؟ أنا لا أمثل إلا نفسي. ثانيًا الجماعة ديل (زي ما إنت بتقول) إنت صدقتهم؟؟ أنا لا، ثالثًا: مافي أي إنقسام في البلد، في بلد قررت إنها تتحكم بحكم مدني ديموقراطي، يكفل لكل أهلها الأمن والمساواة والعدالة، ويتقاسموا جميعًا، مواردها وخيراتها، و(الجماعة ديل) قالوا: هم لازم يحكموا، هم بس، ويتقاسموا الخيرات مع

دول شريرة. أسياد البلد، ما منقسمين يا خواجة. رابعًا: هم خلقوا المشكلة، إتفاهم معاهم هم، أنا ما عندي مشكلة وما خلقت مشكلة، وكان ده فهمك- وفهم الخواجات المعاك ديل- بقول ليكم: إنتو ما فاهمين حاجة، سلامو عليكم. (وانتتر طلحة واقفًا)..

-- طلخة بليييز.

هنا تحدث أحد البلهاء وقال كلامًا كثيرًا، بالعربية، قال:

- عيب نظهر قدام الأجانب إننا عاجزين عن حل مشاكلنا ومحتاجين ليهم يساعدونا.

قاطعه طلحة قائلًا:

--ومنو الأدخلنا في المطب ده؟؟ مش إنتو؟؟

-- الفات مات، هسه نحن وإنتو عايزين نصل لحل، أقعد نتفاهم.

-- الحل بسيط وانتو عارفنو، تتخارجوا بس، أدونا سلطتنا، وارجعوا ثكناتكم، وإن كان بعد داك، إنتو -بالذات-، عندنا معاكم كلام.

غضب الأبله المتحدث غضبًا شديدًا، وبدأ صوته في الارتفاع، بل والصياح، هنا أسكته الخواجة ذو الوجه الثعلبي الذي كان يبدو على وجهه أنه لم يفهم شيئا، وإن استفزه غضب الأبله، بعدها نظر إليَّ الخواجة فترجمت له ما دار بيني والأبله بالعربية، فغضب بدوره، وقال لي:

-- This is too much طلخة،

لازم تنازلات.

هنا إنتقل الغضب إليّ، فقلت للخواجة بصوت، من يصر على أسنانه:

-- هوي يا خواجة، ليه too much؟؟ جاوبني بصراحة، إنت والمعاك ديل، بترضوا تحكم بلدانكم مليشيات؟؟

--لا لا، لكن هنا الأمر مختلف.

-- المختلف شنو؟؟نحن ما بشر زيكم؟؟ ولِّا ما بنستاهل الحكم الديموقراطي، خواجات حقارين..

(آخر كلمتين، قلتها بالعربية)، فظن الخواجة إنها شتيمة، فأحمر وجهه.

-- يا طلخة، نحن عايزين موت يقيف.

التقط كبير البلهاء الجملة وقال:

-- أيوة يا طلحة، نحن عايزين (نحقن الدماء)..

ضحك طلحة، بل وقهقه بصوت عال، ضحك هستيري، جذب إلي القاعة، إنتباه، وفضول أمنجية الفندق وعماله، وبعض المتسكعين فيه، لكن الأبله (العمل ليهو جضيمات) ذهب إليهم وأبعدهم، ثم أغلق الباب بإحكام، وجلس، وهو ينظر إلى طلحة وهو يكاد يتميز من الغيظ.

-- المضحك شنو؟؟

وقال الخواجة:

-- ممم What's funny؟؟

جلس طلحة وقال:

-- شر البلية ما يضحك.

هنا غضب الأبله أب جضيمات، وصرخ:

-- أنا شر البلية يا حيوان؟؟

أسكته الأبله الجالس بجانبه، بالقول انه لا يقصدك، هذا مثل عربي، يردده الناس عندما يضحكون في موقف يستدعي البكاء، ثم صمت الجميع، لكن فضول الخواجات بشأن قهقهة طلحة كانت شيئًا محسوسًا يحوم فوق الطاولة...

إستعاد طلحة هدوءه وقال بإنقليزية واضحة ذات لكنة سودانية صميمة:

-- شوف يا خواجة، الحل هو ترك هؤلاء (ونظر للبلهاء باحتقار) للسلطة، والعودة لثكناتهم وعمل الجيوش الطبيعي، ولو أبيتوا الحل ده، نحن بنحلها بطريقتنا، طريقة الشعب السوداني المعروفة ومجربة، وانتو لو عايزين توقفوا الموت- زي ما قلتوا- إتصرفوا مع البسبب الموت، إعتقلوهم، أهرشوهم، عاقبوهم، ده ما شغلي..

ثم نظر طلحة لكبير البلهاء، وواصل:

-- إنت جادي؟؟ عايز تحقن الدماء؟؟ أحقنا ياخي، المنعك منو؟؟الموضوع بيدك والجنبك ديل، أوقفوا سفك الدماء.

.Please do it

وجم الجميع فوقف طلحة وتفرس في كل الوجوه باسمًا، هازئًا-، ثم قال: ده الحل، جازفوه لينا.

ثم استدار ليخرج، فقال له أحد البلهاء:

-- عندك عربية؟؟ نوصلك؟

-- شكرًا، الوكت بدري، بلقي مواصلات.

وسار في شموخ وهو يردد لحنًا فرائحيًا، في تلك الليلة غادر طلحة السناري الفندق الفخيم، لكنه لم يصل إلى بيته، ولا لمحطة المواصلات، فبعد شارعين من الفندق، قطعت طريقه خمسة عربات- بدون لوحات- ونزل منها أناس، يغطون وجوههم بعضهم بالأقنعة، وبعضهم بشالات، وبعضهم بالكدمول، واقتادوه إلى حيث لا -ولن- يعلم أحد.

بعد عدة أشهر، وبينما كان بضع كنداكات وشفاتة يحتفلون بـ(حكومة الحكم المدني) الكامل، بشارع النيل في أمدرمان، طفت جثته أمامهم، ونظروا إلى وجهه ليتعرفوا عليه، كان مازال مبتسمًا في ثقة...

--تمت--

---

*تعرفون "الرجال" البلهاء، لكن كاتب القصة، سحب كلمة "الرجال"، لأن هؤلاء الخمسة -بالذات- لا يستحقونها...